فهد المارك

لمحات عن التطور الفكري في جزيرة العرب

في القرن العشرين



١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م

مطابع ابن زيدون بدمشق

فهد المارك

لمحات
عن التطور الفكري في جزيرة العرب
في القرن العشرين

مطابع ابن زيدون بدمشق
١٣٨٢ هـ – ١٩٦٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى روح جامع شتات ابناء الجزيرة العربية ، وموحّد كلمتهم ، عبد العزيز آل سعود ، والى اي زعيم عربي يوفق لتوحيد شمل أمة الضاد ، مهما قست اسباب هذا التوحيد ومهما ارتفعت أسهم التضحية في سبيله ، والى الشيوخ في همة الشباب ، والى الشباب في حنكة الشيوخ :

اقدم الى هؤلاء جميعا هذا السفر ، تاريخاً من الماضي ، ومرآة للحاضر ، وخطة في المستقبل .

فهد المارك

التمهيد

لو شئت ان اكتب عن التطور الذي حدث في الجزيرة العربية ، منذ مطلع القرن العشرين حتى هذه الفترة ، كتابة شاملة وافية ، لكل معنى من معاني التطور ، لو شئت أن أفعل ذلك لاحتاج الامر الى زمن طويل ، والى كتابة سفر ضخم ، ولذلــك آثرت أن أختصر الكتـابة ما استطعت عن التطور الكائن ضمن نطاق محدود ، راجيا أن يكـون لي من وقتي ما يتيـح لي في المستقبل أن أكتب عن التطـور بصورة اشمل وأكمـل .

اما الآن فحسبي أن تكون كتابتي مقتصرة ، على النواحي المعينة ، وبخاصة ماله تاثـير وعلاقة ماسة بتطور الفكر ، ثم مدى هذا التطور العنيف المفاجيء ، الذي يعجزني التعبـير عنه مهما حـاولت الى ذلك سبيلا ، وغاية ما أملك هو أن أقدم للقاريء صورة مصغرة يستطيع بها أن يستنتج الحكم كمقياس محسوس يحكم به .

واعني بالقاريء ذلك الذي لم يتاد له أن يعرف شيئا عن مقـدار ما عانـاه جيل الجزيرة بالامس الادنى القريب ، من ركـود الذهن ، ثم ما يتمتع به اليوم نفس هذا الجيل من سمو الوعي ويقظة الفكر ،

واني اذ احاول أن أقدم دليلا ملموسا يحكم به على ما أشير اليه ، فلن أجد دليلا أجلى وأولى من أن أقول اننا بقـدر مانصطنع المقارنة في سرعة تطور حياة جيل الجزيرة ، من الناحية التقليدية : من ركوب

الجمل منذ سنين قليلة جدا ، الى ركوب الطائرة النفاثة ، أجل بقدر ما يكون هذا البون شاسعا بين هاتين المرحلتين ، من الناحية الاجتماعية للجيل الذي أدرك الاولى بالامس ويعيش الثانية اليوم ، يكون الفرق بعيدا الى مالا نهاية ، لهذا الجيل بالذات من الناحية الفكرية .

وعلينا أن ندرك بان هذا التطور الفكري المذهل ، قد لايكون شاملا لجيل الجزيرة بصورة عامة ، فقد تجد مواطنا كهلا قضى الكثير من عمره في عهد الجمل ، ولكن تفكيره الراهن انما هو تفكير جيل الصاروخ ، كما انك تجد فتى لم يدرك عهد الجمال ، ولكن تفكيره بلغ من الاسفاف والانحطاط ، درجة تعلو على مستوى تفكير جيل الجمل .

هذا وقد يكون حديثي عن شرقي الجزيرة ، وشمالها ، اكثر اتساعا منه عن نواحي الجزيرة الاخرى ، مع العلم بان الجزيرة كلها ، وحدة لاتنفصل ، وجزء لايتجزا ، وانما هناك سبب رئيسي يجعلني اتقيد بالكتابة اكثر عن هاتين الناحيتين ، وهو انني آبى أن أسير القلم في موضوع لم آخذ له اهبته ولم ألم به جيدا .

ولما كنت كمواطن عاش في تلك النواحي ، أي شرقي وشمالي الجزيرة ، اكثر مما عشت في غيرها ، فقد يسهل علي أن أتحدث عن مدى التطور الفكري ، الذي رايته بتلك البلاد راي عيان ، وبصورة مفصلة أكثر توضيحا من غيرها .

ولا شك في ان التطور الصناعي والتطور العلمي منذ مطلع القرن العشرين ، كلاهما كان مدهشا حقا في شتى انحاء البلاد المتحضرة ، ولكن نسبة تطور الوعي ، في شبه الجزيرة لايمكن أن تقاس سرعته بالنسبة لبلاد أخرى ، والسبب الرئيسي في ذلك هو ان هذا التطور انما وقع فجاة وبصورة مذهلة جدا .

وليس في مقدور أحد أن يتصور مقدار هذا التطور ، اللهم الا من عرف كيف كانت عليه الجزيرة بالامس ، ثم ما هي عليه اليوم . من ثم يمكنه أن يدرك مدى التطور الفكري العنيف ، الذي لم يبلغ من العمر اكثر من عشر سنوات لا اكثر ، ففي خلال هذه الفترة الوجيزة استيقظ الوعي وتطور الفكر في شبه الجزيرة تطورا يكاد يكون ضربا من الوهم والخيال ، وبصرف النظر عن كون هذا التطور كله حسنا

بالنسبة لبعض المفاهيم ، أو قبيحا بالنسبة للمفاهيم الاخرى ، فان هذا الشيء لم يكن موضع البحث الذي نحن بصدده ، وانما المهم ، بالنسبة لبحثنا هذا هو ان نشير الى بعض النقط الحساسة ، التي كان المجتمع او السواد الأعظم من الشعب يؤمن بصحة صوابها كعادات راسخة ، واذا به الآن يتنكر لها ، ويخجل الكثير من انفسهم عندما يذكر احدهم ايمانه بتلك العادات ، كما ان هناك أشياء كان يحاربها بعنف وضراوة ، وذلك منذ عهد قريب جدا ، فاصبح الآن يجلها ويقدسها ، بل ويدافع من اجلها بقدر ما كان الى قريب يعاديها .

ان شعبا لديه من المواهب الفطرية ما يجعله يتطور في سرعة خارقة بمثل هذه المدة الوجيزة ، لجدير به وايم الحق الا تمضي به مدة مماثلة للمدة الاولى ، حتى ينتهي به الوعي الى أن يعيب بعض مايستسيغه اليوم ، وتلك سنة التطور التي فطرها مبدع الكون ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

كل هذه المعاني التي يستحسنها الشعب اليوم وكان حربا عليها بالأمس ، والتي استساغها بالامس القريب واذا هو لعهدنا لاينفر مثل ما ينفر منها . كل ذلك سوف نذكر منه ما يمكننا ذكره فيهذاالبحث، مستمدا ذلك من صميم الواقع ، ومنخبرتي ، وذاكرتي ، ومشاهداتي لتطور الوعي ، الذي جاء كنتيجة حتمية لاسباب عديدة ، ولا أستطيع أن أحكم حكما قاطعا بأن أهم تلك الاسباب هو العلم كما هو المفروض أن يكون ، فالعلم بلا شك عامل أساسي ، في نمو الوعي ، وتطوره ، ولكن اذا شئنا ان نقارن بين نسبة المتعلمين علوما عالية ، في جزيرتنا العربية ، وبين نسبة النفر الذين لم تتح لهم الفرصة ليتعلموا العلوم المقررة في المعاهد المختلفة ، اللهم الا العلوم المحدودة بالجهد الفردي الخاص ، فاننا لنجد أن منهم من بلغ من سمو الوعي درجة لاتقل عما بلغه اولئك المتعلمون علوما عالية .

اقول اذا شئنا ان نجعل هذه المقارنة قاعدة في الحكم ، فاننا سوف نجد نسبة المتعلمين قليلة جدا ، فيما اذا شئنا أن نحصر نمو اليقظة الفكرية ، وتطور الوعيعند المتعلمين منحملة الشهاداتالعالية .

وهذا ما يجعلني على مثل اليقين بأن العلم وان يكن لاسبيل سواه

لصقل المواهب، واذكاء الوعي ، بل ولا قيمة للامة الا بقدر نصيبها منه، فهو كما اسلفت ، لم يكن السبب الاوحد في تطور الوعي وشيوعه بين صفوف المواطنين على اختلاف طبقاتهم ، وانما كان في مقدمة الاسباب الموضحة كالآتي :

١ ــ المذياع « الراديو » .

٢ ــ الاتصال المباشر بالعالم الخارجي .

٣ ــ المطبوعات ، كالصحافة والكتب الحديثة ، وخاصة المترجم منها .

كل هذه النقط كانت من العوامل الاساسية ، في تحلل الفكر من اساره ، ونمو الوعي وانتشاره ، وذيوع التقدم وازدهاره .

المقدمة

من بدهيات الأمور أن الحياة العامة ، التي تعيشها الامم ، سواء منها الاجتماعية أو الثقافية ، كل من هذه وتلك لها صلة مباشرة في نمو الوعي وازدهار الفكر ، فيما اذا كان المجتمع يعيش في أمان من رفاهية العيش ، ويأخذ قسطا وافرا من المعرفة ، ومن العناية الصحية ، ومن التكافل الاجتماعي ، والامر على العكس اذا لم تتح الفرصة للشعب أن يستمتع بشيء من هذه المعاني .

وعلى هذا الاعتبار تكون نسبة الوعي الشعبي ، من سمو وانحطاط متصلة اتصالا لاينفصل ، بقدر ما يتمتع ويرفل ، بشيء من المعاني المذكورة ، ولذلك ، يطيب لي أن أصف شيئا من حياة شعب شبه الجزيرة بصورة شاملة ، في شتى مرافق الحياة بقدر المستطاع ، ولا أريد أن أذهب بالقارىء الى مدى بعيد من التاريخ ،

بل أود أن أحدد الفترة الكائنة منذ فجر القرن العشرين ، حتى بداية تطور الوعي الراهن ، ولست بحاجة للتأكيد فيما اذا قلت أن الاطوار التاريخية التي اجتازتها الجزيرة ، خلال هذا القرن ، تنقسم الى ثلاثة أطوار :

الطور الاول :

يبتدىء من مطلع القرن العشرين حتى آخر الربع الاول منه .

الطور الثاني :

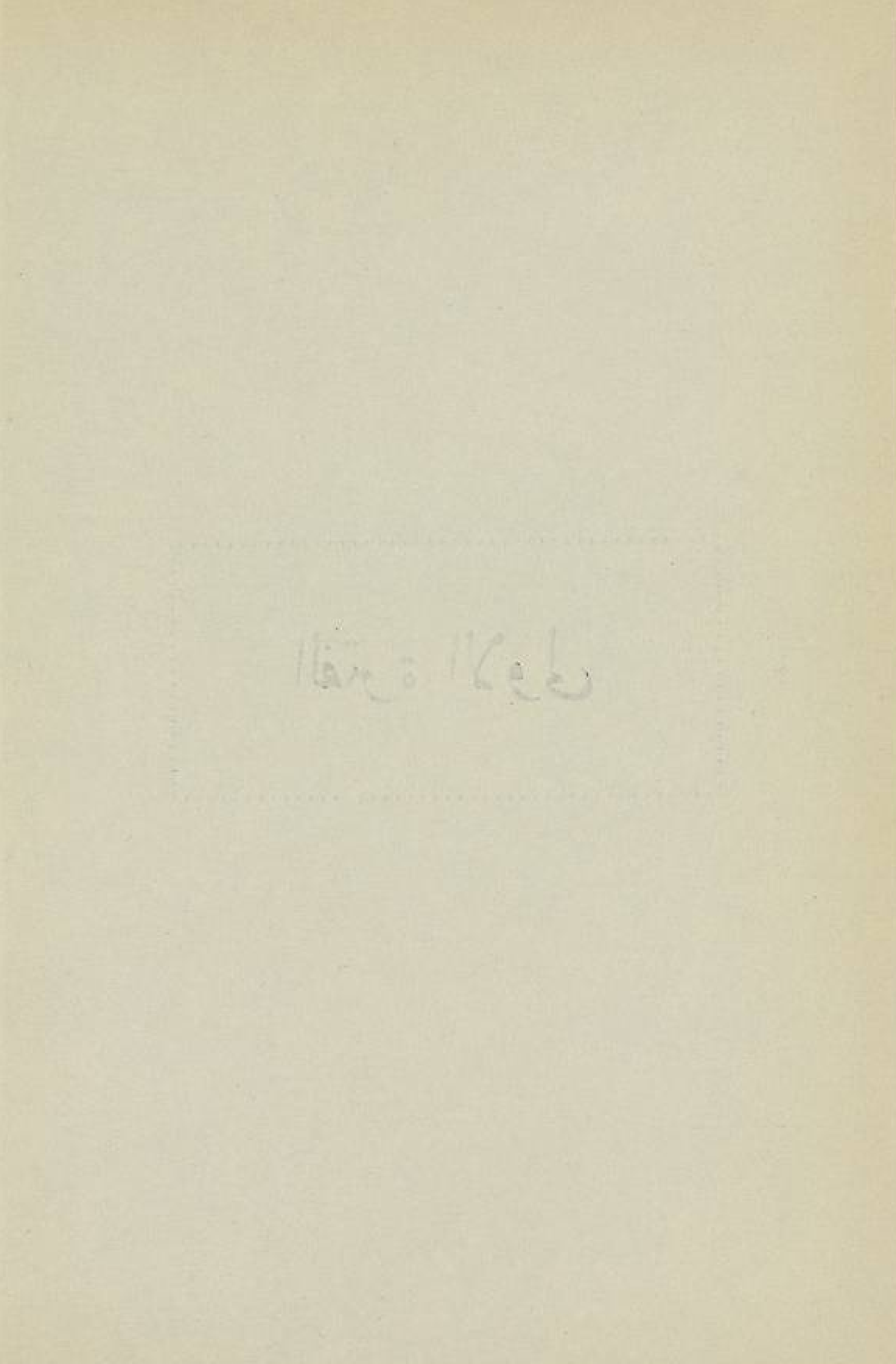
يمتد من عام ١٩٢٧ حتى عام ١٩٥٠

الطور الثالث :

يبتدىء من منتصف هذا القرن حتى عامنا هذا ١٩٦٢

والذي تجدر الاشارة اليه هو أن الحياة العامة في الفترة الاولى هي بلا شك امتداد للحياة الجاهلية الاولى ، بل هي صورة طبق الاصل عنها ، اللهم الا ماله اتصال بالعبادات ، وبعض العادات، كقتل الموؤودة وغيرها من العادات الجاهلية التي قضى عليها الاسلام، ولكنه لم يقض قضاء نهائيا على بعض العادات الاخرى كالغزو والنهب ، والتطاحن العشائري ، بين قبيلة واخرى ، والتمييز القبلي بين مواطن ومواطن ، كل هذه الاشياء ظلت على ما هي عليه ، حتى نهاية الفترة الاولى ، كما سنوضح ذلك في البحث الآتي بعون الله.

الفترة الاولى



الناحيتان الاقتصادية والاجتماعية

كانت البلاد تعاني من البؤس والحرمان أشد ما توصف به من سوء الحالة في شتى النواحي العامة ، ولنأت الآن على ذكر الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، فلقد كانت المعيشة في تلك الفترة قاسية جدا ، فالقوت الرئيسي التمر بالدرجة الاولى ، ثم يأتي من بعده البر ، واما الرز فقد لايوجد بصورة مستمرة الا عند القليل من الأغنياء ، مع العلم انه لايوجد في البلاد طبقة من الاثرياء أصحاب الثراء الفاحش .

وقد تحل بالبلاد أحيانا بعض أزمات ، فلا يتيسر لاكثر المواطنين الفقراء حتى التمر ، وكانت المجاعة ، كما نقل لنا بعض الشيوخ ، تبلغ من القسوة درجة تجعل بعضا من المواطنين ، يأكل العشب ، وقد تتضاعف هذه القسوة الى الحد الذي يجعل البعض الآخر يحفر

بيوت النمل ليستحصل على حبيبات الشعير التي سبق للنمل أن ادخرها في أيام الحصاد مؤونة للشتاء .

هذه صورة مصغرة عن الحياة الاقتصـادية والاجتماعية ، في الفترة التي أعني .



الناحيتان الزراعية والصحية

أما من الناحية الزراعية فليس ثمة شيء يذكر البتة ، بل لم يكن آنئذ أية آلة زراعية أو انهار أو سدود ، وكل مافي الامر هو ان الماء يخرج من قعر الارض من الآبار التي يبلغ عمقها عشرين مترا بواسطة الجمال ، ولا يخلو الامر من وجود عيون ولكنها مما لايستفاد منه على الوجه المطلوب •

وأما عن العناية الصحية فحدث عن فقدانها ولا حرج ، فالملاريا وذات الجنب والتيفوئيد ، كل هذه الاوبئة كانت تفتك بالأسر والجماعات ولا علاج لها الا النار ، على يد شخص متطفل على الطب كان يحمل مجموعة من أسياخ الحديد ، فما يصاب أحد بأي مرض الا كان علاجه بالنار عند حضرة الطبيب الفاضل ، اذ ينضج جسده بأسياخ الحديد المحماة والتي تكون أشد حمرة من الجمر • ولا يرفع الطبيب الماهر يده عن جسد المريض حتى يثق

بأنه تمكن من انضاج لحمه ، ولذا قل أن نجد فردا سلم جسده من أثر هذه الاسياخ .

أما الجدري الذي يعبث بالاجساد ويطفىء نـور الابصار ، ويزهق الأنفس ، هذا المرض الخطر قد يكون ضرره في جنـوبي الجزيرة أكثر منه في شمالها ، لان أهالي الشمال كانوا يكافحونه بالتلقيح الشيء الذي كان لايستعمل وقتذاك في الجنوب .

وكنت أذكر أن صديقنا الاستاذ عبد الله ابن خميس كتب مقالا في صحيفة من صحف المملكة طالب فيه بأن توضع وقاية للاوبئة التي تعدي كالجدري وامثاله ، وكم كان الاستنكار كبيرا من كاتب تصدى لمهاجمة الاستاذ ابن خميس معتقدا ان كتابة الاستاذ عبدالله ومطالبته بوضع وقاية للجدري انما تدل على عدم الايمان بقضاء الله وقدره .

ولعل القارىء يظن أن حضرة الكاتب المتزمت كانت كتابتـه بعيدة العهد ، أو في الفترة الاولى التي نحن بصدد الكتابة عنها ، قد يتخيل القارىء ذلك . ولكن الواقع هو ان الكتابة كانت بعد منتصف القرن العشرين ، ومن هنا يبدو جليا مدى سرعة التطور الفكري الذي طرأ على بلاد كان فيها من يظن به انه من رجـال الفكر ، أو يظن هو بنفسه انه من رجال التوجيه ، ومع ذلك ينكر ويهاجم كاتبا دعا الى الأخذ بالوقاية الصحية من الجدري .

الناحية الثقافية

هذا ولست أعتقد اني واجد ما يدعو الى الاطمئنان أو الغبطة عندما أتحدث عن الناحية الثقافية ، لابتلـك الفترة فحسب ، بل حتى في الفترة التي تليها اذ لم يكن ثمة أيـة مدرسة علمية وفـق النماذج الحديثة ، لاثانوية ، ولا ابتدائية • أجل لم يكن هناك في شرقي الجزيرة وشمالها أي شيء من هذا النوع ولا ما هو منـه قريب •

وغاية الامر هو أن يتعلم الطالب قراءة المصحف الشريف فقط عند معلم بحاجة الى أن يعلّم هو قبل أن يكون معلما ، وحتى قراءة القرآن لم يكن هناك مقرئون على الوجه الصحيح ، مع العلم انه يوجد من يحفظ القرآن كله غيبا ، ولكن ليس على الوجه الاكمل من ناحية التجويد ودراسة مختلف القراءات • كما أن من يدرس اللغة العربية قليل جدا ومن يدرّسها طبعا أقل ، وأما الصرف والبلاغة

والبيان ، فهذه كلها لايوجد من يقرؤها أو يقرئها ، فان وجد كان كالمعدوم .

وأما الحديث عن العلوم الرياضية ، فانه كالحديث عن العنقاء. وأقصى درجة من درجات العلم هو العالم الذي يتخصص بدراسة الفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل، فاذا بلغ درجة من الاجتهاد والنجاح ، أصبح له الحق أن يكون قاضيا شرعيا . واما الصحافة فما كان في شرقي الجـزيرة وشمالها أية صحيفة ، لايوميـة ولا أسبوعية ، بل ولا حتى شهرية ، وحتى لو حصل المستحيل ووجدت صحافة فانه لايوجد كاتب واحد من أهل البلاد يستطيع أن يحرر بهـا . وأما الأدب فانه لايوجد أيضا شاعر يشار اليه بالبنان ، عدا المرحوم محمد بن عبد الله بن عثيمن ، وهذا الشاعر على جزالتـه لم يطرق أبواب الشعر على مختلف أنواعـه ، وانمـا كان شعره مقصورا على مدح الحاكم ، أو الرثاء وما شابه ذلك .

وقد كان الأدب الشعبي هو السائد ، فهو الذي يقوم مقـام الصحافة ، حيث كان الشعر القومي المألوف هو شعر الحماسة . وأكثر من برز بهذه الناحية ولعب الدور الخطير هو المرحوم الشاعر محمد العوني المتوفى عام ١٣٤٢ الموافق لعام ١٩٢٣ ميلادية .

ناحية المواصلات

كانت وسائل النقل في الجزيرة في الفترة التي تتحدث عنها محصورة بالابل في المسافات البعيدة ، واما الاتصال المباشر بين المدن وقراها فأغلب ما يكون على الحمر الأهلية . ولم يكن ثمة أية سيارة واحدة في الجزيرة كلها ، اللهم الا سيارة واحدة من نوع مرسيدس جاءت لأمير المنطقة الشمالية وقتذاك سعود ابن رشيد أي عام ١٩١٥ ، وقد أحدث مجيء هذه السيارة ضجة فعالة بالنسبة لجيل ساكني الجزيرة ، فمن قائل انها عمل ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ، وآخرون يزعمون انها من صنع الجنة والشياطين .

والواقع أن مجيء السيارة المذكورة في تلك الفترة أحدث بلبلة في الافكار وخلافا في الرأي ، وكان الاستنكار أعنف وأشد بالنسبة لمن لم يشاهدها من ساكني الجزيرة ، وعلى ذكر تلك السيارة لا أرى بدا من ذكر حادثة هي الى النكتة أقرب منها الى

الجد ، ولما كانت القصة حقيقــة واقعية فانه لابد لي من ذكرهــا موضحة كالآتي :

كان مواطن يدعى محسن الغلث « أدركته في آخر حياته » ، هذا الشخص شاء القدر أن يكون أول مواطن يرى هذه السيارة من ساكني الجزيرة أجمع .

كان محسن سائرا بمفرده في الصحراء ، ممتطيا ظهـر ذلوله النجيبة ، ميمماً بلدة حائل عاصمة أمارة آل رشيد وقتـذاك .. وكانت سيارة « المرسيدس » قادمة من الشام يقودها فتى تركي، ويهديه السبيل نفر من نفس أهالي بلدة حائل قاصدين في سبيلهم نفس البلد الذي اتجه نحوه محسن ، وبمحض المصادفـة التقى محسن والسيارة وجها لوجه في الصحراء ، على مسافة تبعد عشرة كيلو مترات عن بلدة حائل ولم يسمع محسن بالسيارة من قبل ، ولو سمع بها فانه لم يصدق ولن يصدق قطعيا أن هناك قـوة في الدنيا تحمل البشر والاثقال بصورة أسرع وأعظم مما تحملهذلوله الأصيلة .. هذا الشيء لايمكن أن يؤمن به محسن ، وحتى لو رآه شاهد عيان فانه لايؤمن به ولن يؤمن بأن ذلك من صنع البشر، بل هو بحسب تفكير محسن من صنع الشيطان ، ذهـل محسن عندما رأى هذا الشيطان اللعين متجها نحوه بسرعة خارقة لم يسبق أن شاهد مثلها ، فدهش وفر هاربا على ظهر ذلوله معتقدا أنه ينجو

من هذه الآفة بفضل ما يعهده من سرعة جري ذلوله ، ولكنه خاب ظنه بذلوله حيث وجدهذا الشيطان يعدو عدوا يفوق سرعة الفرس. وهنا فكر في الوسيلة التي ينجو بها ، فأرشده الرأي الى أن ينزل عن ذلوله هاربا كيلا يبتلعه هذا الشيطان المارد الخبيث .

وبينا هو كذلك اذا به يسمع أصوات نفر ينادونه باسمه .. سمع من يدعوه قائلا : تعال يا محسن لاتخف نحن رفاقـك .. وأبناء بلادك ... نحن فلان وفلان ، ألا ادن منا ، ليسألك كل منا عن أهله ، وعن البلاد ، بعد أن طال غيابنا عن البلاد ، ونحن الآن قادمون من الشام الخ .. من العبارات الرقيقة التي كانوا يحاولون بها أن يطمئنوا محسنا ، ويهدئوا من ثائرته وروعه ، ولكن محسنا وان يكن من الناحية النظرية آمن بأن الذين يخاطبونه هم ولاشك رفاقه ، وأبناء بلدته ، ويعرفهم كما يعرف ذلوله ، ولكنه من الناحية الفكرية ، لم يكن يسعه الايمان بأن هؤلاء هم رفاقه حقا ، وخيل اليه بما كان يؤمن به ويعتقده أن هؤلاء الذين يحـدثونه في قلب الآلة الشيطانية ان هم الا شياطين تلبسوا أجساد رفاقه ليخادعوه عن نفسه ، فليس له اذن الا أن يتعوذ بالله من الشيطان ، ثم يتلو بعض الآيات التي تحرسه . والغريب أن محسن هذا قد اشتهر بأنه رصين ، هادىء الاعصاب ورابط الجأش ، ومن يدري فلو لم يكن كذلك لأصابته نوبة كانت فيها حياته ؟..

وأخيرا قرر محسن أن ينجو بنفسه وراحلته من هـذا المنظر الشيطاني ، قاصدا بلدته « حائل » حتى اذا لحقه هذا « البعبع » فانه سوف يقاومه ببندقيته التي وضعها بين يديه ، وهـدد ركاب السيارة قائلا : أنا أعرف أن الاصوات والاشخاص هي أصـوات وأشخاص فلان وفلان، ولكن الحقيقة هو انكم شياطين، استطعتم أن تتمثلوا بصوت وشخصيات رفـاقي حتى تخادعوني ، ومضى محسن بحديثه الى أن قال : ولكني أنذركم بأن لا تدنوا مني وان دنوتم فاني سوف أطلق عليكم النار ، وأدافع دون دمي الى آخر نقطة منه •

وقد ذهب الشياطين عن محسن عندما أصدر قراره النهـائي واتجهوا نحو البلد ، وهذه المصيبة لم يحسب لها محسن حسابا ، وقد حاول أن يجهد ذلوله قاصدا أن يدخل البلاد قبل أن يدخلها هذا العفريت الذي سوف يلتهم البلاد ومن فيها ، ولكن محاولته باءت بالفشل طبعا • هذا وان ما يقال عـن محسن عنـدما رأى السيارة ، وما داعب تفكيره وما دار في ذهنه من الخيال والاوهام، هو نفس ما يقال عن العقل والتفكير الذي يحمـله ذلك الجيـل المعاصر لتلك الفترة ••

ومن أوضح الادلة على ذلك هو ان تلك السيارة بعدما انتهى وقودها أدخلت المستودع ، وبعدما احتل المرحوم الملك عبد العزيز

أمارة آل رشيد في يوم ٢٩ صفر ١٣٤٠هـ الموافق لشهر نوفمبر عام ١٩٢١ كان المفروض أن يجلب وقود لهذه السيارة ليستعملها الملك، ولكن الجنود المخلصين لم يتركوا للملك عبد العزيز فرصة التفكير باستعمالها ، بل كان أول عمل مقدس تقربوا به الى الله هو أن حطموها ، على أنها من صنع الابالسة ، تحطيما عنيفا لم يبق منها شيئا ولم يذر .

تلك صورة مصغرة عن تفكير ساكني الجزيرة في تلك الفترة بل وما بعدها بمدة ليست بالقليلة .

هذا وقد جلب الملك عبد العزيز في عام ١٩٢٤ سيارة كان يستعملها لركوبه الخاص ، ولم ترد للجزيرة سيارات أخرى بصورة عامة الا بعد عام ١٩٣٠ . ولشد ما كانت الدهشة والمفاجأة عندما جاء اللاسلكي للبلاد . وقد كانت الضجة الكبرى والمعارضة الشديدة من قبل رجال الدين أكثر من غيرهم . واذا كان رجال الدين الذين بيدهم أزمة الفكر الشعبي والتوجيه القومي يعتقد الكثير منهم أن استعمال اللاسلكي رجس من عمل الشيطان ، وان آلة الارسال لاتتحرك الا بعد أن يذبح محركوها كبشا أسود كقربان للشياطين ، وان لم يفعل ذلك القائمون عليها فان المحرك لايشتغل وأجهزة الارسال لاتسير أبدا ، أقول اذا كان رجال الدين يؤمنون بمثل هذه الخرافة فما بالك بسواد الشعب الذين هم أداة

بيد رجال الدين يؤمنون بكل ما يحللونه،ويحرمون كل مايحرمونه؟

ولعل المجادلة التي وقعت بين المغفور له عبد العزيز بن ابراهيم أمير المدينة سابقا وبين المواطن المرحوم المدعو « صرّاع » لعل تلك المجادلة تعبر أبلغ تعبير عن مدى تفكير المواطنين في تلك الفترة ، كان « صرّاع » شديد الايمان بالرأي القائل ان اللاسلكي سحر من صنع الشياطين لا من صنع البشر • وقد حاول الامير ابن ابراهيم أن يقنعه عبثاً ، وليس من السهل أن يقنع ، وكانت المشكلة بالنسبة لابن ابراهيم هي أن صراعا معروف لدى الدهماء بسرعة البديهة وقوة الحجة ، ورصانة المنطق ، واقناع شخص كصراع أو اقامة الدليل القاطع على مثله يكون بمثابة اكتساح عدد كبير من المواطنين ، بتغيير أفكارهم ، فيجب والحالة هذه أن يجمع ابن ابراهيم كل ما لديه من الأدلة العلمية والحجج المنطقية التي تثبت بأن اللاسلكي من انتاج الفكر الانساني ، وان لاعلاقة للسحرة والشياطين به البتة • وقد كانت المجادلة بين الامير و « صراع » على الشكل الآتي :

الأمير : بصفتك يا صراع صاحب منطق وحجة ، لذلك فاني سوف أقدم لك حجة منطقية تثبت بأن اللاسلكي من صنع البشر لا من صنع السحرة والمشعوذين كما تتوهم •

صراع : وما هو دليلك المقنع على ذلك ؟••

الامير : فلنذهب واياك الى جهاز اللاسلكي ، وعلي أن آمر المسؤول عنــه بتحريك جهازه أمامــك ، وفي حالة تحرك جهــاز الارسال ، أريدك أن تفك أنت بيدك آلة من آلاته ، وبعد ذلـك انظر الى آلة اللاسلكي بكاملها هل تتحرك وتسير في عملها كما كانت من قبل ؟ أم ان الجهاز سوف يتعطل عن العمل بكامله ؟ ثم مضى الأمير قائلا : فان تعطل الجهاز عن الحركة فهذا دليل واضح على أنه يسير بآلات صناعية ، ولا علاقة للسحرة والشياطين به . وان لم تؤثر الآلة المسحوبة منه فعندئذ نوافقك على الرأي بأنهذه العدة بكاملها من أعمال السحرة كما تعتقد ؟

صراع : هل يعتقد الامير بأن الاعمال التي تقوم بهــا النساء اللائي يجمعن قطعا من الصدف والزجاج والخــرز ، ويستعملنـه لكشف علم الغيب ؟؟ هل تعتقد بأن هذا العمل صناعي ؟ أم انه من أعمال السحرة والدجالين ؟..

الأمير : ــ طبعا ان هذه الاعمال لاعلاقة لها بأعمال الصناعــة كاللاسلكي ، وانما هي من أعمال المضللين .

صراع : اذن فلنذهب سويا الى احدى النساء اللواتييستعملن هذه الاعمال وعندما تباشر المرأة عملها ، ادن منهــا أنت بذاتك ، واسحب منها خرزة أو زجاجة من آلات تضليلها ، وانظر اليها بعد ذلك هل تستمر في أعمالها أم انها سوف تشعرك بأن عملها توقف

عن مجراه الطبيعي ، وبطل كبطلان عمل صاحب اللاسلكي عندما يسحب منه مسمار من مسامير عدته ؟•

وكانت نهاية المجادلة أن تغلب منطق الجهل على حجة العلم ، كما كان لهذه المجادلة أثرها المعاكس بالنسبة لمن وصلت اليه من المواطنين الذين لايؤمنون بأن ثمة قوة كاللاسلكي تنقل الحديث من قارة الى أخرى بأي سبب من أسباب العلم الحديث ، فان كان لابد لهم من الايمان ، فانهم لايؤمنون الا من ناحية واحدة وهي ان هذه الآلة الصناعية ــ أي اللاسلكي تمت بالاتفاق مع الشياطين، والجان ، والسحرة •

هذا ولم تكن المناظرة التي جرت بين ابن ابراهيم و « صراع » فريدة من نوعها ، بل حدث كثير من أمثالها ، وعلى سبيل المثال لاعلى سبيل الحصر ،أود أن أذكر مناظرة أخرى جرت بين الشيخين المرحومين : الشيخ عبد الله بن بليهد والشيخ عمر بن سليم ، وكلاهما من مشاهير علماء الدين •

وقد كان الاول يعتقد باباحة استعمال اللاسلكي من الناحية الشرعية الاسلامية ، بينما يرى الثاني بأنه من صنع الشيطان الرجيم المحرم استعماله • ولكن في هذه المناظرة تفوق منطق العلم الذي يمثله ابن بليهد على المنطق الثاني الذي يتمثل بابن سليم ، وكان الحوار بين الشيخين على النهج التالي :

قال الشيخ ابن بليهد لصاحبه : عندما يأتيك من الملك مبلغ من المال ، ويكون طريق الاشعار والتبليغ بواسطة البرقية ، فهل ترفض قبول هذا المبلغ بحجة أن المبلغ جاء اليك بواسطة الشياطين ؟ أم تقبله على علاته ؟ فما استطاع الشيخ ابن سليم أن يجيب الجواب المقنع ، والذي يبدو أن الشيخ ابن بليهد يعرف أن صاحبه جاءه مال دسم عن طريق اللاسلكي . وربما كان تأثير المـال هو الذي أنسى الشيخ المجتهد ان المال جاء اليه بواسطة الشيطان اللعين .

وقد كانت حجة الشيخ ابن بليهد من أكبر الحجج التي جعلت بعضا من رجال الدين المتعصبين يستسلمون للامر الواقع . وربما كان الفضل الاكبر يعود للمرحوم الملك عبد العزيز الذي لايستبعد أن يكون هو الذي أوحى بهذه الحجة للشيخ ابن بليهد .. مـع العلم أن الاخير لاتنقصه الحجة وسرعة الخاطر .



نظام الحكم

يقوم نظام الحكم في الجزيرة ، وخاصة في بداية الفترة التي تتحدث عنها ، أي في مطلع القرن العشرين حتى ١٩٢١ و ١٩٢٧ على نظام قبلي ، فشرقي الجزيرة يحكمها عبد العزيز ابن سعود من الاحساء الذي استولى عليه من الاتراك عام ١٣٣١ الموافق ١٩١٣ الى وادي الدواسر جنوبا ، وشمالا الى القصيم الذي هو الموضع الاستراتيجي الرئيسي بحكم انه موقع متوسط بين شرقي الجزيرة وشمالها ، وأما شمالها فيحكمه ابن رشيد من عاصمة أمارته حائل الى الجوف ، مع ان الجوف يكون أحيانا تحت حكم ابن شعلان ، رئيس عشيرة الرولة . واما غربي الجزيرة فتحت حكم الاتراك استولى عليه الشريف حسين بن علي .

ومن المسلم به أن يكون نظام الحكم عند الجانبين وراثيا .

وفي كل بلدة وقرية ، يوجد أمير منتدب من قبل ابن سعود فيما اذا كانت تلك البلدة أو القرية من الجانب الخاضع لحكمه ، وكذلك الحال في البلاد أو القرى الخاضعة لنفوذ ابن رشيد .

أما البادية فان نظام الحكم يختلف فيها عن المدن والقرى ... فالبدوي غالبا ما تكون نفسه تواقة الى الحرية ، ولذلك نجده لايخضع لقيود الحكم ، هذا وان يكن لكل قبيلة رئيس، ولكن هذا الرئيس لايتحكم في أفراد قبيلته الا ضمن اطار محدود ، اللهم الا رئيس قبيلة مطير الدويش ، فانه يتمتع بنفوذ على قبيلته أكثر من غيره .

واما القضاء الشرعي عند البادية فقد كان يسير على العرف والعادات المتوارثة منذ العهود القبلية القديمة حيث يكون لكل قبيلة قاض أو قاضيان .

فاذا وقع خلاف بين متخاصمين يذهبان الى هذا الحكم ، وغالبا ما يكون الحكم الذي يحكم به فاصلا ، ويستمد القاضي حكمه من العادات والتقاليد والعرف والمجتمع .

فالسلطة التنفيذية عند البادية بعدما يصدر الحكم حكمه هي المجتمع ، أي القبيلة بكاملها ، فالمحكوم عليه من قبل القضاء يستطيع أن يطلب استئناف الحكم عند قاض آخر ، أما الرفض

فلا يمكن ، ويسمى الحاكم الشرعي (عارفه) .

هذه صورة عن السلطة التنفيذية والقضائية في البادية .

أما هاتان السلطتان في مدن الجزيرة فهما يختلفان طبعا عن البادية ، فالسلطة التنفيذية كلها بيد الحاكم ولا يشاركه بها أي فرد من المواطنين ، حتى ولا من اسرته ، فهو السلطة العليا ينفذ ما يشاء أن يفعله ، ويترك ما لم يشأ فعله .

وأما سلطة القضاء فانها بيد القاضي الشرعي ، وهذا القاضي يستمد حكمه من الشريعة الاسلامية ، وما يحكم به القاضي عند كل من حاكم شرقي الجزيرة أو شمالها ، يكون نافذ المفعول ، وطريقة القضاء هي أن يجلس المتخاصمان أمام القاضي على الارض ، ويبدي كل منهما حجته ، وبعدما يستوعب القاضي حجج كليهما يصدر حكمه النهائي اما بالمصالحة بين الطرفين أو بالحكم لمن يرى أن الحق بجانبه ، وقد ينتهي الامر في لحظة لاتتجاوز الساعة ، مع الملاحظة بأن من يدينه الحاكم بتهمة تمت الى سياسة تعارض سياسة الحاكم ، فان للحاكم أن يتصرف بعقابه دون أن يأخذ رأي القاضي الشرعي به ، حتى ولو كان العقاب هو الموت .

الأمن

كانت الجزيرة في مطلع هذا القرن تعاني الشيء الكثير من تفكك الامن ، واختلاف الكلمة ، فقد كانت الحروب الطاحنةقائمة على قدم وساق بين حاكم شرقي الجزيرة وبين حاكم شمالها ، وفي سبيل هذا الصراع المرير كم أريقت دماء زكية وأزهقت نفوس طاهرة من كلا الجانبين ، من أبناء هذه الجزيرة الذين يدينون عن بكرة أبيهم بعقيدة واحدة ، وهي عقيدة الاسلام ، ويذهبون مذهب الامام احمد بن حنبل ، وعلى هذا الاعتبار فان الخلاف بين المتخاصمين لم يكن جذريا ، وانما هو خلاف في سبيل الزعامة ، وهذه المصيبة هي شر نكبة منيت بها الامة العربية والاسلاميةمن عهد علي ومعاوية حتى هذه الايام التي نعيشها حاليا ، ولحسن حظ ساكني الجزيرة ان ذلك الخلاف قد انطوت صفحته الى غير رجعة ، وذلك بعدما تمت وحدة الجزيرة على يد بطلها المغفور له الملك

عبد العزيز آل سعود ، ذلك الرجل الجليل القدر الذي مهما قيل عنه من حسنات وهنات، كانسان هو عرضة للصواب أو الخطأ، فان حسنته، بل حسناته التي أسداها لأمته من أبناء الجزيرة ، بتوحيده لصفوفهم لا يعادلها شيء في نفس كل عربي يؤمن بوحدة أمته العربية التي لم يتسلط المستعمرون وربيبتهم اسرائيل علينا الا بسبب تفرقتنا ، وتجزئة وطننا العربي •

ولما كان الحديث هنا حديث الملك عبد العزيز فلا بد أن أكشف في المكان المناسب من هذا السفر عن السر الجليل الذي مكن لهذا الرجل الكبير توحيد عرب الجزيرة ، أجل لابد من أن أعالج ذلك في بحث مستقل من هذا الكتاب •

ولما كان البحث حول الامن ، فانه ليطيب لي أن أقول : أن الامن في داخل المدن الكبيرة في الجزيرة كان موطدا ، ولكنه لايتجاوز نطاق المدينة فقط ، وعندما يتعدى المسافر هذا النطاق فانه يكون مهددا بالقتل والسلب من البادية ، اللهم الا أن يكون معه رفيق يحميه من سطوة القبيلة التي يمر المسافر بأرضها، بشرط أن يكون هذا الرفيق من نفس القبيلة التي يمر بأرضها المسافر • وان لم يكن بجانب المسافر اعرابي يحميه ، فانه سوف يكون عرضة لادنى غارة من غارات الغزاة الذين لاهم لهم الا الغزو والسلب والنهب • وفي مناسبة ذكر الغزو أراني ملزما بأن أوضح لمن

لايعرف تقاليد عرب البادية أن القصد عند البدوي بالغزو لم يكن قصدا ماديا .. ولم يكن النهب والسلب الا وسيلة لا غاية ، فالغاية عند الاعرابي من الغزو هي ابراز شجاعته لان شجاعة الحروب وشجاعة الساعد من حيث هي في ذلك العهد كانت هي الميزة العظيمة التي يقدر ويحترم من أجلها العربي في محيطه وبين أهله ، فاذا فقد المرء هذه الميزة فقدكل شيء من معاني الاجلال والاحترام، لاعند رجال عشيرته فحسب ، بل حتى عند النساء اذ قل أن يجد من نساء الحي فتاة ترضى بأن يكون لها بعل مالم يكن مغوارا كسابا لابل الاعداء ، وهابا لها بقدر مايستحوذ عليها .

ومن أوضح الادلة على أن البدوي يعتبر الكسب والغزو وسيلة لا غاية ــ هو أنه عندما يغامر بنفسه ويغزو أعداءه من القبيلة الاخرى ، ثم يتمكن من كسب عدد من الابل فانه لايلبث أن يهب الكثير منها ، بل قد يهب جميع ما يكسبه (حذية) أي هدية .

والعادة المألوفة عند العرب هي انه بعدما يعود الغازي الى أهله ، بعد ذلك يأتيه من عرب قبيلته الذين لم يشاركوه الغزوة ، فيقول أحدهم (الحذية) يافلان ، فيهبه أطيب مالديه من الغنيمة، وكثيرا ما يوزع كل ما كسبه بدون أن يرجو مقابلا لهباته هذه اللهم الا الثناء والمجد ، ومن هنا يبدو الامر جليا بأن غاية البدوي بغزوه ونهبه انما هي غاية معنوية بالنسبة لمفهومه أكثر منها مادية .

ولما كان الشعر الشعبي هو خير ترجمان معبر عن أحاسيس وشعور المجتمع ، فانه ليروق لي أن آتي ببيتين أنشدتهما اعرابية من بادية شمالي الجزيرة عن أخيها مخاطبة اياه ولائمة له بقولها :

فزيت أحسبك مع الغزو ... واثريك يالنذل سماح

رصاصة تضربك نزو ... والدم من مضربه ساح

الشرح :

تخاطب الفتاة أخاها في البيت الاول قائلة له : لقد كنت أعتقد انك رحت غازيا في غيابك عنا ، ولذلك سررت واعتززت بك ، ولكن بدا لي فيما بعد أنك نذل ــ حيث ذهبت تأتي لنا «بالسمح»، والسمح هذا يخرج في الفلاة في شمالي الجزيرة ، ولونه الى السواد أقرب ، وهو كحب الدخن ويؤكل بعد الطبخ ، كما انه اذا عجن مع التمر وأضيف اليه السمن يكون لذيذا . ثم تدعو الفتاة على أخيها في البيت الثاني قائلة ما معناه : « أتمنى أن تصيبك رصاصة بمقتل منك لانك فاقد الرجولة » .

فهذه الاعرابية تصور لنا أبلغ تصوير نفسية العربي تجاه الغزو ، فنراها تدعو على أخيها بسهم يصيب منه مقتلا لانها ظنت أن الايام التي غابها كان فيها غازيا ، أما بعد أن خاب به ظنها

فانها أصبحت تتمنى أن يموت بالرغم من أنه ذاهب ليكسب لهـا قوتا يقوم بأودها .

لقد جئت بهذين البيتين كشاهد على ما أشير اليه مع العـلم بأن الشواهد على هذا المعنى خاصة في القصائد الشعبية أكثر من أن تحصى .

وأعود الى الحديث عن الامن في البادية بعد اذ قادني البحث الى الحديث عن الغزو .. فالامن في الصحراء على النهج السالف الذكر هو في المدن الرئيسية كما أشرت موطد الاركان ، ذائع في كل مكان ، مع العلم بأنه لم يكن هناك شرطة أمن على النهج النظامي في المدن ، ولكن هناك من يقوم عمليا بمقام الشرطة من نفس رجال الحاكم ، ومن ناحية الجيش كقوة دفاع فانه لم يكن عند كل من حاكمي شرقي الجزيرة وشمالها جيش بالمعنى الدولي المنظم ، ولكن عندما يطلب الحاكم منهم أن يحاربوا بصفه فكل الشعب على أتم الاستعداد بأن يحارب تحت أمرة حاكمه بدون أدنى مقابل مـن المـال .

oooooo

التكافل الاجتماعي

لم يكن في الجزيرة مؤسسات اجتماعية على الطراز الحديث ، كدور للايتام ، ومأوى للارامل والعجزة ، الا أن هذا لم يمنع من وجود شيء من التكافل الاجتماعي ، حيث كان في تلك الفترة تكاتف بين المواطنين في أمور معينة ، مثال ذلك ان المرء الذي يود أن يعمر سكنا له ، فان المواطنين يساهمون بعمرانه على النحو الآتي :

لما كانت أجرة العامل في تلك الايام قليلة ، فان العمال يشترطون أن يكون أكلهم على صاحب العمران مدة قيامهم بعمران بيته ، وهذه العملية تخفض من أجرة العامل بمقدار الربع ان لم يكن النصف .

والعادة المألوفة في هذا الشأن هي ان جيرانه ينوبون عنه بهذا العبء بصورة تجعل كل يوم يتعهد فيه فرد من سكان الحي بغذاء

العمال على حسابه ، وهكذا دواليك يتناوب السكان هؤلاء العمال بتعهد واحد منهم كل يوم ، وربما انتهى المواطن من عمـار منزله بحيث لايتكلف بغذاء أحد من عماله ، كما انه في نفس الوقت قد يجد من شباب بلدته من يساهم عمليا بعمران منزله مجانا كعامل خاص اذا كان صاحب المنزل فقيرا ، وتلك هي الحـال نفسها في ناحية الزواج فانه يحصل تكاتف بين المواطنـين بصورة تجعـل الصديق يدفع لصديقه شيئا من النقود كمساعدة على المهر وتكاليف الزواج . مع ان تكاليف الزواج والمهر في تلك الايام كانت متواضعة للغـاية .

ومن مظاهر التكافل الاجتماعي أن الاجنبي الذي يحل البلاد فان الحاكم يتعهد بغذائه وسكنه مدة اقامته ، اذ لم يكن في مدن الجزيرة آنئذ فنادق ، وكان سكن الضيف القـادم وطعامه على حساب الحاكم .

هذا نوع من أنواع التكافل الاجتماعي عند الحضر ، اما عند البادية فانه يتخذ شكلا آخر ، ذلك ان البدوي عندما يصاب بنكبة يفقد بها ماله من ابل ، فانه يتحتم على كل فرد من القادرين مـن قبيلته أن يهبه ناقة ، وهذه الهبة هي أشبه ماتكون بالقرض ، أي انه بعد أن يصلح حاله وتنمو ابله عن طريق التناسل، فانه مجبر على

ان يرجع لاصحابه ناقة مماثلة للناقة التي اقترضها . وربما أعادها هي بنفسها .

واما العناية بالضيف عند البادية فحدث عنها ولا حرج ، لان الضيف يبقى عند مضيفه مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، مادامت اقامته مهما طالت ، بل ان العادات المألوفة عند عرب البادية كانت تقضي بأن المضيف لايسأل ضيفه من أين هو ؟ ولا من أين قدم ؟ ولا أين يسافر ؟ اللهم الا ان يشاء الضيف نفسه أن يتحدث عن شيء من ذلك .

ويبدو التكافل الاجتماعي على أتمه بين المواطنين في الغرامات، فمثلا عندما يقتل مواطن بطريق الخطأ بيد مواطن آخر ، فالحكم الشرعي في مثل هذه الحال يفرض على القاتل أن يدفع غرامة كدية للنفس التي قتلها خطأ ، فاذا كان القاتل غنيا فانه يدفع هذه الغرامة من عنده . اما اذا كان فقير الحال ، لاتساعده حاله على دفع الغرامة ، فان المواطنين يتعهدون بدفع الدية كل منهم على قدر مكنته . وربما واتاه عن طريق هذا التكاتف من الاعانات فوق ما يطالب به شريطة أن يكون القتل خطأ لاعمدا .



الناحية الصناعية

لكأني بالقارىء يتساءل لماذا أخرت بحث الصناعة وهو هــو في الأهمية ومن مقومات الحضارة الرئيسية ؟.. الجواب هو انه ليس ثمة ، وياللأسف ، أي شيء يذكر من المعامل الصناعية .

وكل ما يوجد هو بعض الاشياء التافهة من الصناعات اليدوية، امثال الأحذية والاواني المنزلية والابواب وما شابه ذلك، والاسباب في عدم نمو الصناعة عديدة ، وفي مقدمتها الجهل والفقر ، وما دام الواحد منهما كافيا في بلائه الوخيم على الأمة وعائقـا لنموهـا واطرادها ، فما بالك اذ يتوفر كلاهما في مجتمع ما .

ولما كان لكل من الجهل والفقر مساوئه الضارة فتكا في الأمة، فلا بد من أن أشير الى مضار الجهل على المجتمع الذي نتحدث عنه فيما له مساس بالصناعة .

كانت العادات الموروثة التي ما زالت رواسبها راسخة الجذور في تلك الفترة ، تقضي بأن من ينتسب الى الطبقة العليا ، لاسبيل له

الى امتهان أية حرفة من حرف الصناعة ، ما عدا العمران ، فان امتهن أحد من هذه الفئة صناعة ما فالمعنى انه سوف ينحدر الى مستوى الطبقة الثانية التي سبقت الاشارة اليها .

ولا زلت أذكر ضجة كبيرة أثارها متطرفو الطبقة الاولى على مواطن من هذه الطبقة يدعى فهد العباس الفلاجي ، وكان قد اخترع آلة جديدة من الحديد تساعد على اشعال النار واضرامها في الكير الذي يستعمل منذ القدم ، ولطالماوجه لهذا المواطن قارص اللوم والعتاب من أقاربه باعتبار أنه انحدر الى الحضيض بقيامه بأعمال لايليق أن يقوم بها الا من هو من (الخضيرية) الذين هم من الطبقة الدنيا ، وان المجتمع الذي يبلغ بأهله الجهل الى الدرجة التي يعتبر معها من يقوم بالاعمال الصناعية أو يبتكر شيئا منها ، يهوي الى النوع الادنى من البشر ، الذين لايصح أن ينكح نساءهم أحد من غيرهم ، ولا يحق لرجالهم أن ينكحوا نساء غير نساء طبقتهم ، قلت ان مجتمعا يبلغ به الجهل هذا المستوى لحري به أن تتعطل موهبة الانتاج الصناعي لدى مواطنيه . ومن ثم لم يكن من الغريب ألا يكون للصناعة في البلاد أدنى أثر ، هذا بالاضافة الى الفقر الذي يحول دون وجود رأسمال قوي يمكن المواطنين من اقامة مصانع ولو لسد حاجات البلاد من الاشياء الضرورية .

الناحية التجارية

كانت الحركة التجارية في البلاد مشلولة للغاية ، ولم يكن هناك مصارف ، ولا ما يقوم مقامها . ومن يقوم بالاعمال التجارية من المواطنين عدد محدود جدا[1] ، والتجارة غالبا مقصورة على الماشية ، حيث يقوم هؤلاء التجار بشراء الابل من البلاد ، ويذهبون بها الى البلاد العربية المجاورة كالشام ومصر ، واذا باعوها اشتروا بأثمانها أقمشة رجالية ونسائية وأشياء أخرى مما تحتاجها البلاد ، كزيت الغاز المستعمل للتنوير ، والصابون ، وما يشبه ذلك من الحاجات الضرورية التي لاغنى للمواطنين عن استهلاكها ، فيكون التاجر الذي يقوم بهذه العملية رابحا في ذهابه وايابه ، هذا اذا سلم من غارات البادية التي تلتهمه هو وما في حوزته . وثمة تجار

---

١ ـ الاعمال التجارية يتعاطاها رجال الطبقة الاولى خلاف المهن الصناعيـة .

آخرون يمتهنون تجارة اللؤلؤ ، وهؤلاء يذهبون ليشتروا الاحجار الثمينة من مصادرها كالكويت والبحرين الخ.. ويصدرونها للهند، والصفقة التجارية بمثل هذه الاشياء تكون أحيانا خيالية ، ومما لاشك فيه ان ساكني الجزيرة لم يكن لدى الكثير منهم شيء من رأس المال الذي يخول المواطن التاجر منهم أن يقوم بأعمال تجارية على نطاق واسع ، بل ولا على نطاق متوسط ، ولكنهم كانوا معروفين بالامانة وصدق المعاملة[1] عند أصحاب رؤوس الاموال من اخوانهم العرب كالشاميين والعراقيين وكل من لهم بهم صلة تجارية ، ولذا كانوا يطمئنون الى صدق معاملتهم بصورة تجعل صاحب رأس المال يقدم للمواطن من أبناء الجزيرة ما يحتاجه من المال ، على سبيل المضاربة ، أي يكون المكسب مناصفة بين صاحب المال وبين التاجر ابن الجزيرة . يقدم الاول المال ويقوم الثاني بالاتعاب والمغامرات ، لان الاعمال التجارية كانت يومئذ شاقة للغاية ، فلا سبيل للسفر الا على الابل ، والمسافة بين الشام ونجد مثلا لاتقل مدتها عن عشرين يوما ، ناهيك عن الاخطار التي تحيط بالمسافر من الغزاة ، والظمأ في أيام الصيف وما شابه ذلك .

وبالاجمال كان رأس مال ابن الجزيرة ورصيده الامانة والصدق ، وعلى أساس هاتين الخصلتين كان يسعه أن يتناول من

---

١ ـ راجع ص١٣٤ من كتابنا (من شيم العرب) ج١

أصحاب الاموال القدر الذي يمكنه من العمل ضمن جهوده الخاصة بقدر ما يتمتع من الامانة والصدق • والمثـل الشعبي المعـروف والدارج بين المواطنين : يقـول « من أخذ مـن الرجال وأعطى شاركهم بأموالهم » • أي من أخذ من أصحاب المال مالا على أساس المضاربة بأمانة وصدق ، ثم مضى بمعاملته على هذا الاساس فانه يكون شارك أصحاب الاموال بأموالهم • وعلى أساس هذه القاعدة كان المواطنون الذين يمتهنون تجارة الابل يتاجرون بأموال طائلة، حتى ان البعض منهم أصبح في غنى عن أن يأخـذ مالا ممن كان يأخذ منهم سابقا ، كما ان البعض الآخر لديه من الثروة ما يجعله يعطي مواطنيه ما يتاجرون به على نفس الاساوب الذي كان يعمل به مع التاجر الخارجي عندما كان فقيرا •



الحياة الديموقراطية

لاشك بأن العربي ديموقراطي بجبلته وسجيته التي فطره الله عليها، فهو ميال للحرية بطبيعته ، وقد كان ساكنو شمالي الجزيرة وشرقيها لايعرفون الالقاب قطعيا ، لا جلالة ولا سمو ولا معالي ولا سعادة ولا فضيلة ، بل حتى ولا سيادة ، وكان بطل الجزيرة وجامع شملها وموحد كلمتها المغفور له الملك عبد العزيز يناديه أبسط المواطنين باسمه المجرد من الالقاب : ياعبد العزيز ، اما الانحناء وتقبيل اليد، فكان أهل الجزيرة يعيبون هذه العادة وينفرون من مجرد سماعهم لها باعتبارها عادة وثنية سرت اليهم من الاعاجم كما وقع ذلك في المحادثة التاريخية المشهورة عن المنصور أبي جعفر العباسي مع الشخص الذي شاء أن يقبل يده فنهره المنصور قائلا : (ابعد عني يا هذا ، فان كنت عربيا فان تقبيل اليد مذلة لك ، ونحن لانقبل أن نذل العرب ، وان كنت عجميا فانها خديعة منك لنا ونحن لانقبل

أن نخدع) . وهكذا نجد العربي قد فطرت نفسه على الاباء والشمم، وما قصة عمرو ابن كلثوم مع عمرو بن هند ببعيدة (والحادثة مشهورة لا داعي لشرحها) .

وبالرغم من أن نظام الرقيق كان سائدا ومعمولا به بصورة علنية بتلك الفترة ، فالحقيقة التي لامكابرة فيها هي أن الرقيق يعامل كابن وكأخ ، وخاصة عند الحضر ، حيث لايشعر الرقيق الا انه من نفس الاسرة ، ولا فرق بين الرقيق وبين سيده ، لا بالغذاء ولا بالكساء ، وحتى في المحادثة ، لايستعمل السيد لرقيقه الكلمة التي تمس شعوره كرقيق ، وذلك الرقيق لاينادي سيده بلقب يعبر عن أي معنى من معاني التفخيم أو التعظيم ، فكلمة « سيدي » أو « مولاي » من الرقيق لمالكه لايوجد لها أثر و (يا) النداء بين الرقيق وسيده تأتي على شكل ينادي بها الاول الثاني بكلمة(عمي) أو يناديه باسمه الصريح ، كما ان السيد ينادي رقيقه اما يا ابني أو يا أخي أو باسمه الصريح ، ورابطة الالفة والمحبة بينهما تبلغ أحيانا حد الاسراف ، وقد تكون من الرقيق أعظم وأمتن منها من السيد ، وكثيرا ما يفدي الرقيق حياته في سبيل سيده اذا دعت الحاجة الى ذلك ، ولئن دلت تضحية المملوك بحياته دون مالكه فانما تدل على ناحيتين : الناحية الاولى هي المعاملة الحسنة التي يعامل بها السيد مملوكه حتى استطاع أن يملك قلبه ، كما ملك رقبته ،

والناحية الثانية الرئيسية عندي والتي يجب أن تكـون موضـع الانتباه هي الجهل الاعمى من الرقيق ، والا كيف يضحي بنفسه في سبيل من سلبه حريته التي هي أثمن شيء في الدنيا .

أما أن يعتقد مسلوب الحرية جهلا بأن سيـده ولي نعمته ، وانه المحسن اليه ، وانه يجب أن يقابل هـذا الاحسان بأحسن وأعظم منه ، أي بفدية سيده بنفسه عند الملمات ، أما ان يفعـل المملوك هذه العملية الهستيرية ، فالسبب هو انه مسلوب الحرية ، ومن سلبت حريته شلت ارادته ، وفسد عقله ، أجل ولو كان الرقيق يتمتع بمسكة من العقل ، اذن لادرك أن كل ما أسداه اليه سيده من معروف واحسان لايقاس بواحد من المائة مما اختلسه منه سيده من حرية هي أسمى وأقدس وأنفس شيء في الحياة ، ولعمـري ما قيمة الحياة اذا ما فقد المرء حريته .

وبعد ، فاننا عندما نتحدث عن الديموقراطيـة في الجـزيرة وخاصة فيما له علاقة في معاملة الرقيق فلا بد أن نعترف بأنه وان يكن العربي بطبيعته مفطورا على الانطلاق من القيود بحكم حياته الصحراوية ، محبا للحرية ، فان قضية المعاملة الديمقراطية للرقيق يعود الفضل بهـا أولا وآخرا للاسلام ، وكل من يعرف تاريـخ الجزيرة قبل الاسلام يدرك جيدا أن الرقيق كان يعامل عنـد العرب معاملة البهائم ، وقد بلغ بهم الاسراف بهذه الناحية حدا جعلهـم

لايعترفون بالحاق أبنائهم بانسابهم فيما اذا كانوا من أم ووالد ، أي اذا كانت أم ابنه رقيقة له ، فانه لايعتبر ابنه ابنا له بل يعتبره عبدا له ، وعندما يشاء أن يبيع أم ولده فانه لايتورع من أن يبيعها هي وابنه على سواء كما يبيع المتاع .

ولم يقف محمد عليه السلام من تلك العادات الجاهلية موقف المشرع فحسب ، بل وقف موقف المنفذ والمطبق عمليا .

وهل هناك دليل محسوس أعظم وأجل من ان ينكح محمدابنة عمه زينب بنت جحش لمملوكه زيـد بن ثابت ، وأعظم من ذلـك تحديا لعادات الجاهلية هو انه بعدما قضى زيد وطره منها وطلقها يأتي الرسول الاعظم وينكحها هو بنفسه بعد مملوكه .

هذا وانه من لم يدرس العادات والتقاليد القبلية ، وأعتقد أن الدراسة وحدها لاتكفي بل من لم يعش في قلب الجزيرة كفرد من صميم أبنائها فانه لايستطيع ولا بشكل من الاشكال أن يتصور مقدار ما تحدى به الرسول عليه الصلاة والسلام لعادات العرب، ولا يتصور شدة وطأة هذه العملية لاعلى عقول عرب الجاهليـة وحسب بل حتى على عقول ومفاهيم عرب شرقي وشمالي الجزيرة حتى في هذا العصر وفي هذه الفترة التي نعيشها بالذات .

ولذلك أجدني ملزما على أن أقول يجب على ابن الجزيرة ان

يكون ايمانه برسالة محمد عليه السلام وبجلالة قدره ، أشد الايمان وأعظم الاجلال لانه هو الذي يعرف التقاليد القبلية الساري مفعولها حتى يومنا هذا وهو الذي يعيشها ويتحسسها ، ومعرفته لهذه الناحية وادراكه لها تجعله يؤمن بأن محمدا (ص) تحدى العرف بتمزيقه لعاداتهم الجاهلية الموروثة احقابا طويلة عندما انكح ابنة عمه لمملوكه تحديا لا يقل أهمية عن تحديه لهم بعبادتهم .

ولما كانت العادات الجاهلية راسخة في نفوس العرب ، ولما كانت المبادىء الاسلامية التي نادى بها محمد وطبقها عمليا هو وخلفاؤه الراشدون لم تدم طويلا ولم تتغلغل في جزيرة العرب وذلك بحكم انتقال عاصمة الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة الى الشام في العهد الأموي ثم العراق في العهد العباسي والى مصر في العهد الفاطمي، فانه من بدهيات الأمور أن تظل بعض العادات الجاهلية كالتمييز العنصري الموروث من العهد الجاهلي، باقية حتى هذه الفترة خاصة في شمالي الجزيرة وشرقيها ولذلك ظل هذا القسم الى يومنا هذا يعيش في نظام التفرقة والتمييز القبلي الموروث جيلا بعد جيل من العصور التي قبل الجاهلية .

فساكنو شمالي وشرقي الجزيرة يعيشون كطبقتين : الطبقة الاولى يعبر عنها بالقبلية . والطبقة الثانية يعبر عنها بالخضيرية . وعلينا بهذا الصدد أن نوضح بأن التفرقة التي أشرت اليها محدودة

على التناكح فقط . أي ان المرء الذي من الطبقة الاولى المسماة بالقبلية لايمكن أن ينكح ابنته لمن هو من الطبقة الثانية .

وفي عام ١٩٣٢ حدث في الجزيرة شيء من المحاولة لتطبيق الدعوة الاسلامية من هذه الناحية حيث قام المرحوم الشيخ عبدالله ابن بليهد وتزوج واحدة أو اثنتين من فتيات الطبقة الثانية ، مفكرا كما ينقل عنه بأنه يحاول أن يقوم بتجربة عملية عله يقضي على العادات القبلية ، ولكن محاولة الشيخ لم تسفر عن نتيجة ملموسة بالرغم من أن الشيخ من العلماء البارزين بعهده الذين يصح أن يتخذ المجتمع قدوة من سيرته واعماله . وفي اعتقادي ان من الاسباب التي جعلت تجربة الشيخ تبوء بالفشل هو ان الشيخ نكح من الطبقة الدنيا ولكنه لم ينكح ابنته أو واحدة من فتيات أسرته لمواطن يرضى شرفه وخلقه ودينه من رجال الطبقة الثانية . وربما لو فعل الشيخ ذلك لكان له الأثر الفعال في المجتمع ، وكأني بمعترض يقول ألم ينكح محمد ابنة عمه لمملوكه زيد ؟ ومع ذلك لم يتغير شيء من العادات القبلية ؟.. فالجواب على ذلك : هو ان محمدا عليه السلام قام بتلك العملية كبكر من نوعها في الحين الذي كانت العادات الجاهلية على أشد ما تكون عنفا وقسوةفكان الخلق الجاهلي لازال راسخا في كيان العرب ، اما العهد الذي يعيشه عالم كالشيخ ابن بليهد فقد كان بعدما مضى على الدعوة

الاسلامية مقدار ثلاثة عشر قرنا ونصف القرن •

وعلى أي شكل فان الاسلام خفف كثيرا من حـدة التعصب القبلي ، حيث كانت الفوارق بين الطبقتين مقصورة على التناكح فقط كما سلف ذكره ، وما عدا ذلك فان من يكون من رجال الطبقة الثانية ، فانه يشارك المجتمع في جميع المرافق الحيوية سواء ما كان له علاقة في وظائف الدولة ، أو الاعمال الحرة والفوارق التي أشرت اليها لايستطيع أن يحسها أي انسان مالم يكن من نفس أهل البلاد •

ومن المعلوم ان الطبقة الدنيا تشكل في الجزيرة وخاصة في المدن مجموعة لاتقل عن نصف سكانها ومصدر هذه الطبقة ناشىء من أحد الاشياء الآتية :

اما أن يكون منحدرا من أصل اختلس أبوه أو أحد أجداده فاعتبر رقيقا ، وذلك في الحين الذي كان نظام الرق متفشيا وسائدا كقاعدة أساسية مألوفة من عهد ما قبل التاريخ •

أو أن يكون أبوه أو أحد أجداده جاء للجزيرة من أحد الاقطار العربية أو المدن العربية المجاورة أي التي لم تكن من مدن شمالي وشرقي الجزيرة تلك التي ينتسب أهلها الى احدى القبائل العربية التي غالبا ما تكون اما قحطانية بنسبها أو عدنانية باعتبار ان أنساب العرب مقصورة على هذين النسبين •

ومــن مسلمات الامــور ان التطور الفكري لايمكــن ولا بوجه من الوجوه ان يهضم مثل هذه الامور التي هي من مخلفات الجاهلية لانها بقدر ما تعارض المبادىء الاسلامـيـة بشدة وعنف تعارض أيضا التطور الحديث الذي يسير سيرا حثيثا لاهوادة فيه٠



الطابع البارز على محيا المجتمع

في كل زمان ومكان لابد ان يكون لأي مجتمع ميزة خاصة تكون كطابع بارز يتصف بها دون سواه .

وكما ان لكل فرد من البشر سجية بارزة يمتاز بها بصورة تطغى على جميع سجاياه ، فان كل مجتمع يكون له الطابع الخاص الذي يمتاز به عن غيره من المجتمعات الاخرى . لذلك فانه ليسعدني أن أشير الى الطابع البارز المهيمن على ذلك المجتمع بل الطاغي على شعور وتفكير ساكني الجزيرة في الزمان الذي حددت الحديث عنه .

فبقدر ما كان ساكنو الجزيرة فقراء من كل مقومات الحياة المادية والصحية الخ .. فانهم كانوا أغنياء للغاية بتمسكهم بالاخلاق المثلى ، فلقد كان لديهم رصيد لاينضب من المثل العليا كالشجاعة واكرام الضيف واجارة المستجير واباء النفس وغير ذلك من القيم

الشريفة التي كان يتنافس عليها المواطنون بكل مالديهم من القدرة.

وربما كان الشاهد الامين والترجمان الصادق بتعبيره عن هذه الحقائق هو الادب الشعبي فقصائدنا القومية هي اللسان الناطق الذي يصف لنا طابع الجزيرة البارز على ألسنة شعرائها الشعبيين، كما وردت بنصها الآتي :

كقول الشاعر الحماسي محمد الصغير :

ياشاريه بمحلقه وجه الذليـل   يالله العنه وش عاد يبغي بالحيـاة

الشرح :

فهذا الشاعر يصف الروح العربية في حالة الفرار من عار الجبن.

يقول : انني أعرض شرف الجبان وحياته « بمليم » فهل مـن مشتر ، وال « محلقه » هي عملة كانت تستعمل في ذلك الـوقت تساوي المليم المصري .

وفي المصراع الثاني مـن البيت يقول الا لعنة الله عليـه أي (الجبان) فعلام يريد الحياة .

ويقول الشاعر الثاني :

يالعنبو مرة الذليل   وشو لوه تكحل عينهـا

الشرح : ويقول الآخر أيضا : اللهم العن أبا امرأة الجبان فلم

تكحل عينيها وتجملانهما له ؟ وفي المصراع الثاني يقول : طالما انه لايخيف الاعداء بسيفه فيا للاسف على تجملها لهذا البعل الجبان.

والثالث يقول :

يالبيض ياللي تعشقني   العفـن قـولن مـانبيـه
خوذن صبي ما يـذل   والمـوت ما يطـرى عليه

الشرح : أيتها الفتيـات الناصعات البياض اللواتي تهفواليكن نفوس الشباب عشقا وغراما ، اياكن أن تقبلن أن يكون الجبان لكن بعلا ، بل ارفضن قبول الـ « عفن ، أي الجبان » .

والامثال لاحصر لها في هذا المعنى وتكاد أن تكون الشجاعة في تلك الايام هي أبرز الصفات ، وكذلك اباء النفس وعدم احتمال الضيم ، هذه الناحية لها أيضا الاثر الفعال ، فاصغ معي الى قول الشاعر (ابو زويد) حيث ينصح ابنه بقصيدته اللاميـة المحفوظة لدى الرواة للشعر الشعبي ومنها قوله :

اختار لك من عوص الأنضار ماله   حمـراء توردبك الى صنقر اللال
خله مع الديان تمشي لحـاله   اليعاد ما أنت للمسة الخشم حمال

يقول أبو زويد ناصحا ابنه المدعو حمادا يجب عليك يابني أن تحتفظ دائما بذلول من الابل النجائب التي تستطيع بها أن تقطـع البيداء في عنفوان الصيف ، وشدة الحر لكي تمضي على ظهرها

فارا عندما ترى أية اهانة موجهة اليك ، ولاسيما اذا كنت شابا أبي النفس ذا شمم ولا تَبِت على الضيم •

ثم يمضي الشاعر فيقول :

العن صبي شوفته قدر حاله ودك تدوّر زوجته فيه الابـدال

الحمرة تدرك معوشة عياله ليعاد ما يبغي منه باقي الاحـوال

ترى ربع يوم مقعدك بالجلاله يسوى زمان عايشـين به أنذال

في هذه البيتين تتجلى لنا الروح العربية الأبية بأبرز معانيها •

يقول الشاعر في البيت الاول : الا لعنة الله على فتى محدودة همته على نفسه فقط ولم ينظر للحياة الا مـن زاوية مصلحتـه الخاصة •• هكذا يقول في المصراع الاول • اما المصراع الاخير فانه يزيد وضوحا بقوله : يجب على الفتاة التي يكون بعلها مـن هذا النمط الذي لايهتم الا بنفسه ، يجب عليها أن تستبدله بغيره من فتيان الحي الاباة الاشاوس •

وفي البيت الاخير يقول : اذا كان هناك رجل يرى منتهـى آماله ان ينكح وينجب ومن ثم يؤمـن العيش لنفسه ولزوجـه وأطفاله واذا ما بلغ هذه الدرجة فانه يكون قد أدى واجبات الرجولة على أكمل وجه ، يؤكد الشاعر بأن الرجل الذي يعتقد انه بلغ القمة بوصوله الى هذه الدرجة فانه خاطىء في تفكيره لان الـ (حمرة)

أيضا قادرة على أن تنجب أولادا وتقوم بأودهم وعيشتهم كل القيام.
والحمرة بالتأنيث هي طير من أضعف الطيور الصحراوية جسما ومقدرة .

يقول الشاعر في البيت الثالث انه من الافضل أن يحيا الفتى ساعات لاتتجاوز ربع النهار وهو شامـخ الانف مرفـوع الرأس موفور الكرامة،ذاك خير من أن يعيش عمرا طويلا وهو ذليل مهدور الكرامة ، فتلك حياة لايرضاها الا الانذال الذين ينظرون للحياة من حيث حب البقاء .

وهذا المعنى الذي قاله هذا الشاعر الامي البدوي منـذ أكثر من خمسين سنة قال معناه كل من الشاعرين محمود سامي البارودي وأحمد شوقي .

فالاول يقول :

علام يعيش المرء في الدهر خاملا   أيفرح بالدنيا بيـوم بعـده

ويقول شوقي :

واحب من طـول الحيـاة بذلة   قصر يوريك تقاصـر الاقران

هذا وجه من وجوه المجتمع في الايام التي تتحدث عنها وهو يصف لنا الميزة البارزة من الشجاعة واباء النفس .. والآن نود أن

نذكر شيئا عن نفسية اولئك الرجال في ذلك المجتمع فيما له علاقة في اكرام المستجير الذي حكمه كحكم الضيف لانهغالبا ما يكون مستجيرا عن أحد من رجال قبيلته برجال قبيلة أخرى غير قبيلته .

وهنا يقول الشاعر :

ألا ومع ذلك لك الله لنا كار   عن جارنا ما عاد نخفي الطريقــه
ونرفو عيوبهرفية العش للغار   ونجعل له النفس القوية ضعيفة

يقول الشاعر : انه بالرغم مما يعرف عنا من البطولة والصلابة فان لدينا تواضعا وكرم نفس ولين جانب لمن يستجير بنا ، بصورة تجعل نفوسنا القوية امام الاعداء ضعيفة أمام مستجيرنا ، وحتى لو بدا منه عيب فاتنا نرفأ عيبه ونستره ولا ندع أحدا يعرف عنه . ثم يأتي شاعر الحريق محسن الهزاني فيقول :

لك الحمد ما تتبع عطانا ولو بعد   على الغيظ قلنا ذابه البر ضايع

يقول الهزاني : انه من نعم الله علينا أن لدينا من أصالة الخلق وسمو النفس ما يجعلنا اذا فعلنا المعروف عند أحد ، فاننا لايمكن أن نذكر هذا المعروف ، حتى ولو نزل منا المعروف غير منزله في غير أهله ، وتنكر لمعروفنا وعاملنــا معاملة سيئة ، حتى ولو حــدث ذلك فان لدينا من مناعة الخلق ما يحول بين نفوسنا الطيبة وبــين أدنى شيء يحدونا الى القول ان المعروف بمثل هذا ضياع لايثمر .

وبعد فقد فاتتني الاشارة الى ناحية ذات أهمية وهي تحضير البادية الذي بدأ عام ١٩١٥ ، تلك العملية التي قام بها المرحوم الملك عبد العزيز حيث سعت كل قبيلة بتوجيه منه بتخطيط بلدة لها وتسمى (هجرة) ، أي ان سكانها هاجروا من البادية اليها .. ومما لاشك فيه انه حصل عند البادية انقلاب فكري عظيم كان له الاثر الفعال ، وخاصة من الناحية السياسية ، كما كان له أثره الشكلي من الناحية الروحية ، ولكنه لم يبدل شيئا من العادات البدوية الاصيلة . وأما أنه غرس في نفوس اولئك النفر حب القتال والكفاح ، وهذا شيء طبيعي بالنسبة لما فطرت عليه نفوسهم الصحراوية ، فحب القتال والصراع والغزو شيء راسخ في نفس البدوي منذ نعومة أظفاره ، وانما الذي حدث هو انه بدلا من أن يغزو البدوي ويقاتل من أجل المجد وكسب الثناء بالدنيا أصبح يقاتل حسب العقيدة الاخيرة من أجل احدى الحسنيين : اما الفوز والنصر على أعداء الله الكفرة ، أو الشهادة في سبيل الله ، ليحظى بالفردوس والحور العين . وبدلا من أن يحرص على القتل من أجل أن يأخذ الثأر من رجال احدى القبائل المعادية له أصبح حريصا على قتل من يقع بيده من أعدائه الكفرة ليتقرب الى الله بدمه ، لانه يعتقد أنه بقدر ما يقتل من أعداء الله تكتب له الحسنات ويكون له في جنات الفردوس القصور العالية ، فيها الحور العين القاصرات

الطرف ، وكل من لاينضم الى حظيرتهم هذه ولم يكن منهم فانه كافر بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر فيجب جهاده .. وحتى لو شاء ان يدفع الجزية فانها لاتقبل منه ، الجهاد ولا غير الجهاد .. والحقيقة انهم وان كان تدينهم على غير دراسة راسخة في معرفة الكتاب والسنة ، ولكن وجودهم بلا شك أفاد الجزيرة من حيث تمام الوحدة السياسية الحالية التي كانوا دعامتها وأهم العوامل لقيامها .. ومما لاريب فيه أيضا هو ان اولئك القوم لو خرجوا على الدنيا بعقيدتهم التي يؤمنون بها في العصر الذي لم يكن فيه سوى السيف والرمح ، أي كما كان الامر في عهد الصحابة ، لو جاؤوا في مثل هاتيك الفترة لتغير مجرى التاريخ العربي ، ولساروا بفتوحاتهم شرقا وغربا كما فعل الصحابة ، بصرف النظر عن كون اولئك الصحابة رضوان الله عليهم اعتنقوا الاسلام عن وعي وتدبر وعلم بكتاب الله وسنة نبيه . وان هؤلاء كان تدينهم عن جهل وعدم معرفة بالكتاب والسنة على الوجه الاكمل ، بصرف النظر عن هذه الناحية ، فالمقصود هو ان عقيدة الايمان التي كان يحملها الاولون عن ايمان بالجنة بعد الاستشهاد ، كان هؤلاء يحملونها بكل معنى من معاني التضحية والبطولة ، الا ان الآخرين خانهم الحظ حيث بزغ نجمهم على الدنيا في الحين الذي يملك أعداء العرب والاسلام من المعدات الثقيلة الشيء الذي لايوجد مع الاسف

عندهم ، بل حتى سلاح البندقية وعتاده لم يرد اليهم ، الا من صنع أعدائهم .

هذا وانني لو أردت ان أتحدث عن بطولة هؤلاء في الحروب وأسرد كل ما سمعته من الثقاة لطال بي الشرح بعيدا ولكني أود أن أذكر حادثة على سبيل الاستشهاد لعلها تنهض صورة صادقة واضحة المعالم عنهم للقارىء الذي لم يعرف شيئا عن ايمان اولئك القوم ، وقبل أن أسرد القصة لابد من ذكر مقدمة لها :

بعدما تمت وحدة الجزيرة من الناحية الشرقيةوالشمالية، قام نفر من هذه الفئة بغزوة لم يستأذنوا بها قائدهم الاعلى المرحوم الملك عبد العزيز ، قاصدين شرقي الاردن ، وذلك في عام ١٩٢٢ ، وكانوا شديدي الايمان كعادتهم بأنهم لن يهزموا ، ولكن الشيء الذي لم يدر في خلدهم ولم يحسبوا له حسابا ، هو انهم بعدما صبوا غارتهم على العدو اصطدموا بشيء لم يخطر ببالهم وجوده ، اصطدموا بالطائرات والمصفحات الانجليزية التي صبت غارة معاكسة عليهم ، فقاوموا ولكن مقاومتهم لم تجد نفعا ، وكانت هذه المعركة هي الاولى في تاريخ حياتهم التي غلبوا فيها ، بيد انهم لم يستسلموا وقاوموا الى أن أحاطت بهم القوة التي لاقبل لهم بها، ونفدت ذخيرتهم ، وقتل منهم من قتل ، وأسر من أسر .. وهنا يروي لي القصة الواقعية العقيد محسن الحارثي مدير المدرسة

الحربية في المملكة السعودية سابقا ، وهو لازال على قيد الحياة.
يقول محسن : عندما غزا الاخوان(١) شرقي الاردن كنت وقتها قائدا تابعا لامارة شرقي الاردن ، وكان مقر قيادتي القريات التي تقع شرقا من لاردن ، وهي الآن تابعة للمملكة السعودية .. يقول الراوي : ان القوات الاردنية بعثت اليه بعدد من أسرى الاخوان، فقام باكرامهم وعاملهم معاملة ضيوف أعزاء لا كأسرى .. وانما الذي ادهش « محسن » هو ما رآه منهم من رباطة الجأش وعدم الاستكانة أو ابداء أي نوع من أنواع الذلة والخنوع .

وأكد لي محسن بأنه عندما رأى هؤلاء القوم بهذه الصفة شاء أن يتحدث معهم ليقف على ما تكنه صدورهم وما تنطق به ألسنتهم ، فكانت المحاورة التي دارت بين محسن والضيوف الاسرى يتلخص معناها كما يلي :

محسن : ان البون بيننا وبينكم شاسع الى أبعد حد بالاعمال الطيبة والرحمة والعدل . ومن أبرز الادلة على ذلك هو أننا بعد أن أسرناكم ووقعتم تحت رحمتنا كان بامكاننا أن نعزركم ونقتلكم، ولكننا كما ترون عاملناكم معاملة الضيوف الكرام لا معاملة الاسرى . أما أنتم فلو انتصرتم علينا وأسرتم منا أحدا فانكم سوف لاتتورعون عن قتل أي واحد يقع منا بين أيديكم .

---

١ ـ كلمة الاخوان ، تطلق على اولئك القوم المتدينين .

يقول محسن : ما ان انتهيت من حديثي هذا حتى انبرى واحد من صفوفهم يبدو انه من كبارهم فقال بهذا المعنى : ان كنت ترى انكم تمنون علينا بعدم قتلنا وترككم لنا أحياء بهذه الحياة الدنيا الفانية فاننا نرى انكم حرمتمونا من الاستشهاد في سبيل الله ومن نعيم الجنة والحياة الباقية . واما قولك بأننا لو استولينا عليكم قتلناكم فهذا صحيح لاننا بقتلنا لكم ندخل الجنة ، بينما أنتم بقتلكم لنا تدخلون النار وبئس المصير . واذا كنت نادما على عدم قتلنا فاننا لسنا نادمين على حياتنا بل الأحب ما عندنا هو أن نستشهد في سبيل الله .

هذه الرواية نقلتها عن لسان العقيد المتقاعد الشريف محسن الحارثي مدة لاتقل عن ثماني سنوات ، فان زدت أو أنقصت في اللفظ بحكم طول المدة ، فاني واثق بأني لم أزد أو انقص في نفس المعنى ، لان القصص ذات المعنى الحيوي كهذه القصة لاتضيع معانيها من الذاكرة مهما يطل بها العهد .

* * *

وكأني بالقارىء ينتظر مني الحديث عن مدى التطور في ناحية هامة من النواحي التي تتنافى طبعا ، لا أقول مع تطور الفكر الحديث ، بل مع التعاليم الاسلامية وهي : قضية الرق ، فقضية الرق سوف أتحدث عنها وعن مدى تطورها الراهن ، ولكن الذي

أريد أن أنبه اليه القارىء هو اعتقادي الراسخ أن ما وقع وما سيقع من التطور في قضية الرق لم يعد الفضل فيه بالدرجة الاولى للتطور الحديث بل الفضل الاسبق يعود لرسول الانسانية محمد عليه السلام ، لانه هو اول من بذر جذور الحرية ، ونادى بأن البشر كلهم سواسية ، وان الاصل في الانسان هو الحرية ، وكل ما طرأ طارىء على تغيير أو تبديل في الاصل فانه باطل. اما ان الاسلام لم يقض على هذه المهزلة في الجزيرة القضاء المبرم النهائي ، كما انه لم يقض على بعض العادات الموروثة منذ العهد الجاهلي ، كالتمييز العنصري كما سلف ذكره ، فهذا يعود الى ما أشرت اليه آنفا ، وهو انتقال الامبراطورية الاسلامية منذ مقتل عثمان الى بلادبعيدة عن الجزيرة كالشام والعراق ومصر . وكان ذلك في الحين الذي كان ساكنو شرقي الجزيرة وشمالها كلهم بدوا ورحلا ، ولم يكن في تلك الاماكن مدينة يشار اليها بالبنان . وعندما استوطن هؤلاء البدو القرى وعمروها ، حتى أصبحت الآن مدنا فقد بقيت بعض العادات الجاهلية راسخة الجذور في نفوسهم وخاصة قضية الرق ، وقد كان الرق منذ العهد الجاهلي حتى بداية الفترة الاولى التي كتبنا عنها ، مشاعا بشكل مبتذل ، فكان الانسان يعرض في الاسواق للبيع ، كما يعرض المتاع ، وكان أي بدوي يقع بيده صبي أسود البشرة ويستطيع أن يختلسه بغفلة من أهله ، فانه

لايتورع عن اختلاسه ، فان كان هذا البدوي فقيرا باع ما اختلس بأبخس الاثمان ، وان كان يملك قسطا وافرا من الابل والغنم فانه يستعبده ليتولى رعاية ابله أو غنمه ، كل هـذا كان قبـل فترة التطور .. أما الآن فقد تقلص هذا الشيء[1] وخاصة الاختلاس .

وانه ليطيب لي بأن أعيد ما ذكرته في السياق بأن أسبقية الفضل لم يكن للتطور ، بل كان الفضل الاول للاسلام ، واليك فتـوى عالم من أكبر وأشهر علماء الجزيرة وهو الشيخ عبد العزيز بن باز الذي أوافي القارىء بصورة فوتوغرافية عن رسالته التي جاءت كجواب على سؤال وجهته اليه في عام ١٣٧٣هـ الموافق ١٩٥٣ :

ولما كانت رسالة الشيخ ابن باز مختصرة كجواب منـه على السؤال الذي وجهته اليه ، فقـد كنت أود أن لـو استوضحت بالسؤال أكثر عن الحكمة التي أباح بها الاسـلام استرقاق مـن

---

(١) بلغني من مصدر ثقة من أبناء الجزيرة يؤكد ان الحكومة أصدرت أمرا هذه الايام القريبة يقضي بعدم الاسترقاق بأي وجه من الوجوه ، وفي يوم ٨ من شهر ذي القعدة ١٣٨١ الموافق ٢/٥/١٩٦٢ اجتمعت بسيادة الاستاذ ناصر المنقـور وزير العمـل والشؤون الاجتماعية في المملكة السعودية سابقا ، فاستفسرت منه عما سمعته بخصوص الامر الصادر من الحكومة بشأن منع بيع وشراء الرقيق ، فاكد لي بأن الذي يعرفه هو ان هذا الامر بحث في مجلس الوزراء في عام ١٣٨٠ اي عندما كان وزيرا ، وانه اتخذت بشأنه قرارات تقضي بمنعه منعا باتا .

ونحن لانستغرب أن تصدر الحكومة قرارا بمنعه فهـذا شيء طبيعي ، ولكن موضوع الغرابة هو اباحة الاسترقاق مادام ان الاصل في الانسان الحرية ، شرعا وعقلا .

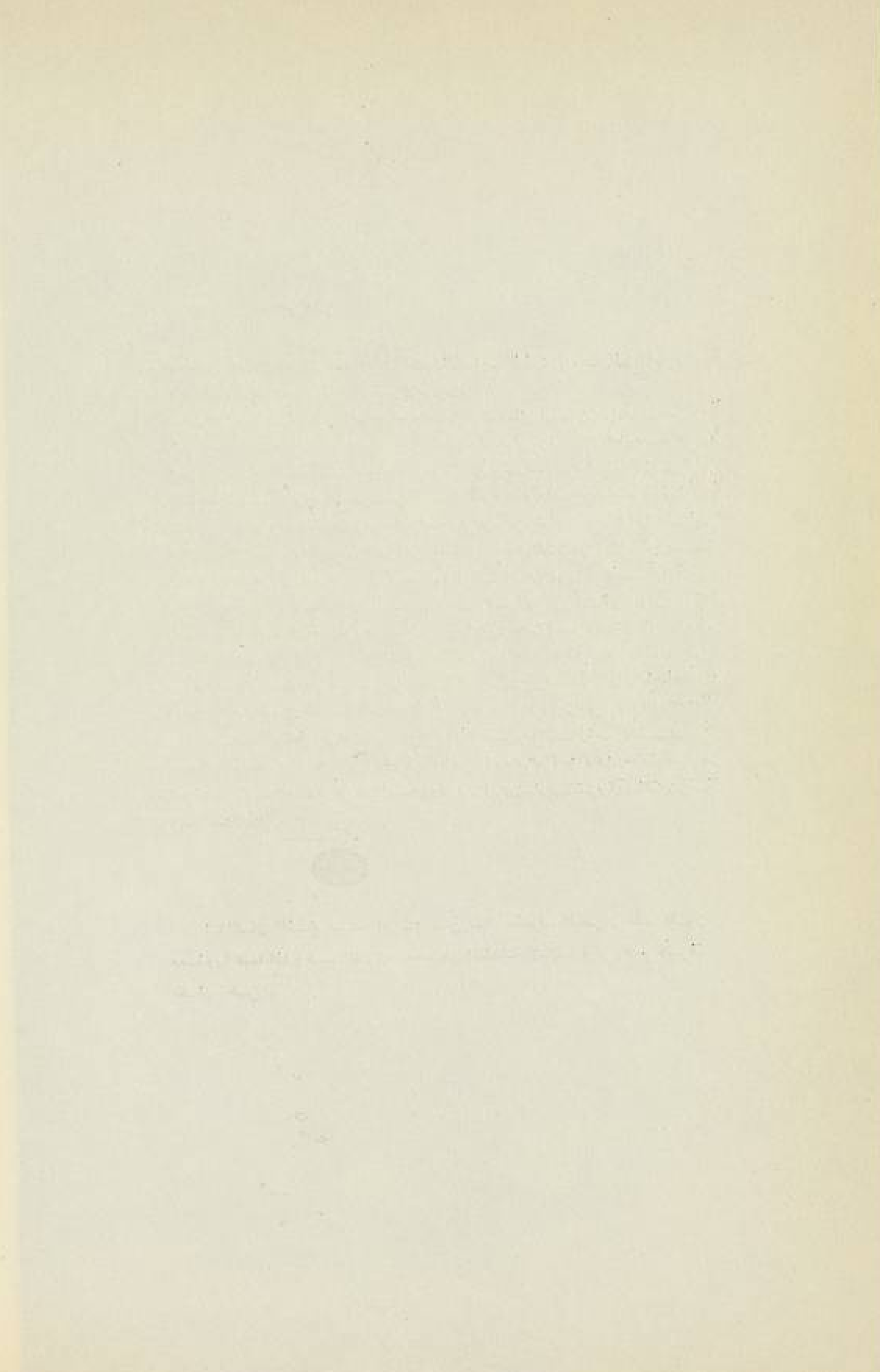
بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الله بن باز الى حضرة الاخ المكرم الشيخ الفاضل فهد الحارث زاده الله من العلم والايمان ومنحه الفقه في السنة والقرآن امين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اما بعد فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو على جميع نعمه واسأله تعالى ان يوزعني واياكم شكرها وان يعيذنا جميعاً من موجبات غضبه واسباب نقمته ثم افيدكم ان كتابكم الكريم المؤرخ [illegible] وصل وصلكم الله بحبل الهدى والتوفيق وما تضمنه من السؤال كان معلوما وهذا نص السؤال والجواب ومن الله استمد التوفيق والسداد في القول والعمل السؤال (١) هل يجوز شرعا استرقاق الكافر خاصة اذا كان بين حكومته والحكومة الاسلامية معاهدة (٢) هل يجوز استرقاق الكافر فيما اذا باع ابنه فهل يكون الرق شرعيا بمثل هذا العمل الجواب ظاهر الكتاب والسنة انه لا يجوز استرقاق الاحرار مطلقا الا بالسبي الشرعي وذلك انما يكون بعد الجهاد الشرعي المشتمل على الدعوة الى الاسلام او بذل الجزية ان كان ذلك الكافر ممن يجوز اخذها منه كأهل الكتاب والمجوس فمن امتنع من قبول الاسلام وبذل الجزية فحينئذ يجوز لامير الجيش الاسلامي قتل المقاتلة وسبي الذرية والنساء بل يؤمر بذلك ويتعين عليه مع القدرة وما وقع في يده من الاسرى خير فيه بين القتل والمن والاسترقاق والمفاداة كما قد اوضح ذلك اهل العلم في كتاب الجهاد اخذا من ظاهر القرآن والاحاديث الصحيحة الواردة في هذا الباب اما استرقاق الكافر بغير هذا الطريق فلا اعلم حجة شرعية تدل على جوازه بل ظاهر السنة تحريم ذلك والوعيد عليه كما في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال قال الله تعالى ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة رجل اعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يعطه اجره انتهى ومعلوم ان الاصل في بني آدم هو الحرية فلا يجوز الخروج عن هذا الاصل الا بحجة شرعية وقد ذهب بعض اهل العلم الى جواز الاسترقاق بطرق اخرى غير السبي ولكن لم يذكروا حجة شرعية تعتمد وذلك [illegible] فالمعتمد من حيث الدليل هو ما تقدم والله اعلم وصلى الله على محمد [illegible]

[illegible]

لما كان الشيخ عبد العزيز بن باز مكفوف البصر . فقد يكون معذوراً فيما اذا وجد القارىء بعضا من الغلطات الاملائية ، أو وضع حرف مكان آخر .



لايؤمن برسالته بعد الاستيلاء عليه ، والذي يبدو هو ان الاسلام لم يبح استرقاق الانسان بأي وجه من الوجوه الا من قبيل المعاملة بالمثل . ولما كان أعداء الاسلام اذا أسروا نفرا من المسلمين في الحرب استرقوهم ، فانه من المسلم به أن يعامل الاسلام أعداءه من جنس العمل الذي يعامله به أعداؤه . كما ورد في قوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) . وقوله : (وجزاء سيئة سيئة مثلها الى آخر الآية) .

ومن المعلوم ان محمدا عندما أسر المشركين في غزوة بدر لم يسترقهم ، ولم يكن في القرآن الكريم آية من آي الذكر الحكيم تشير الى استباحة استعباد الانسان للانسان ، وكل ما جاء في القرآن بشأن اسرى الحرب هو قوله تعالى : (فاما منّاً بعد ، واما فداء) .

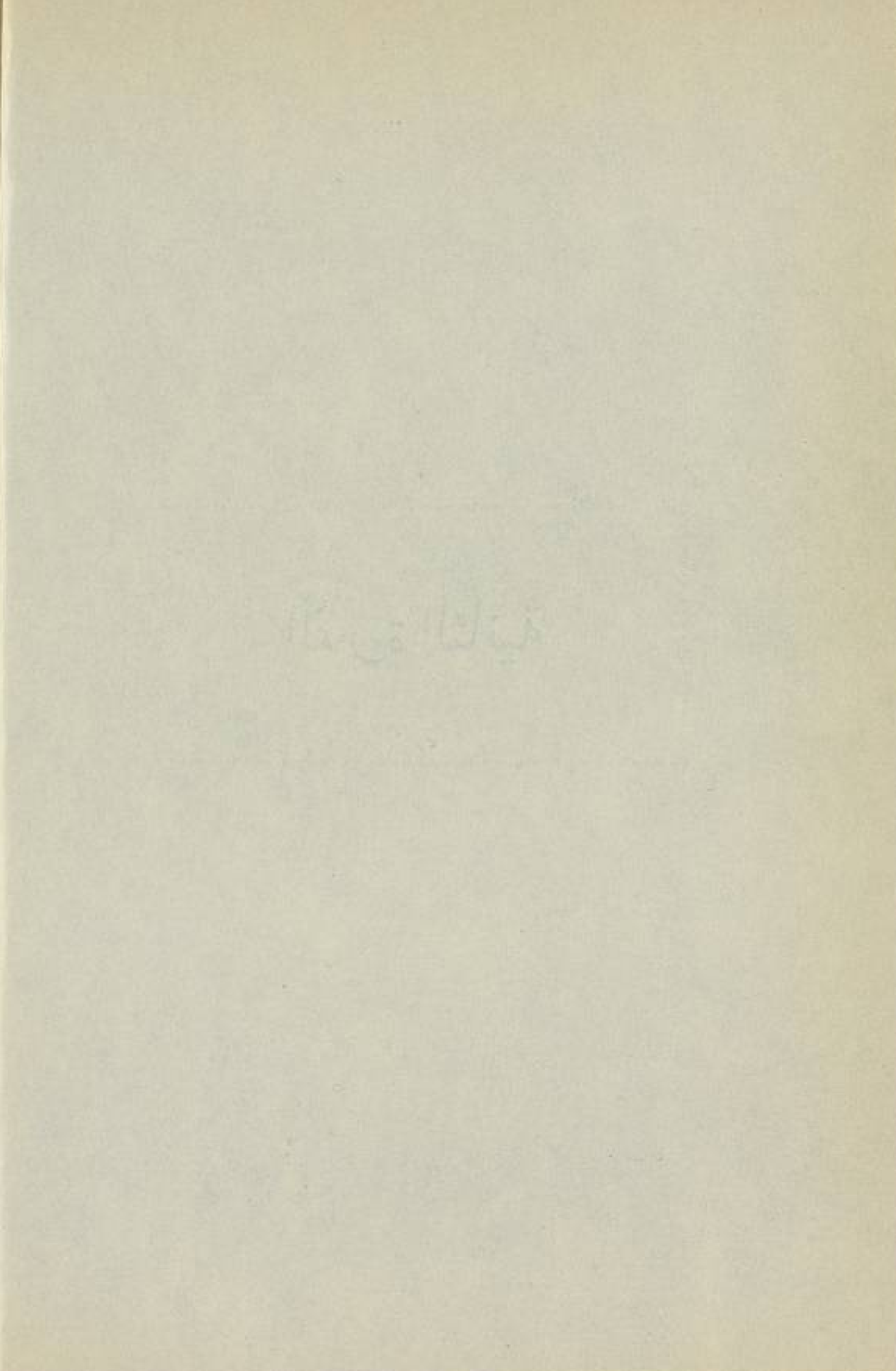
فالى هؤلاء الذين يصمون الاسلام بما ليس فيه ، نؤكد بأن الاسلام بريء مما يصمه الاعداء ، والى هؤلاء الذين يستعبدون الامم ، ويعيشون على مجهود الملايين من بني البشر كمستعمرين ، ومن ثم يضللون البسطاء من الناس بأنهم هم أول من بدأ بتحرير الانسان من استعباد الانسان . الى هؤلاء واولئك نؤكد بأن أول من نادى بتحرير الانسان من استعباد أخيه الانسان هو رسول الانسانية محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك في الفترة التي تعتبر

عند الاوروبيين ما قبل القرون الوسطى ، فتلك القرون التي تسمى عندهم قرون ظلمات وقرون وسطى هي في تاريخ العرب بعد الاسلام تعتبر فترة الانتفاضة الفكرية من عبادة الاوثان ، سواء ما كان منها جمادا أو ما كان بشرا .

أما أن يقال بأن تحرير الانسان من الاستعباد والاستعمار ، لم يتحقق الا بعد القرن العشرين ، فهذه الحقيقة الواقعية لانستطيع أن نقول ان الفضل فيها يعود لاولئك المستعمرين ، بل يعود الفضل بالدرجة الاولى للرسول الاعظم ، ثم بالدرجة الثانية لتطور الوعي البشري الذي جعل عشرين دولة تأخذ استقلالها الكامل رغم أنف المستعمرين أو المستعبدين ، وذلك في خلال سنتين فقط من عام الستين الى عامنا هذا ١٩٦٢ . ناهيك بعدد الدول التي نالت استقلالها منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن. فهل يقال ان الفضل يعود للطغاة المستعمرين الذين لم يتركوا شبرا من الارض التي استعبدوا أهلها حتى أراقوا على تربتها الطاهرة من دماء ابنائها الاحرار البررة الشيء الذي لاحصر له ، كما هو الحال الآن في الجزائر المجاهدة ؟ أيمكن أن نؤمن بهذه الخدعة ونقول أن الفضل يعود لهؤلاء الطغاة المستعبدون كلا وألف كلا .



الفترة الثانية



التطور في شتى النواحي

لا أريد أن أفند الاشياء في الكتابة عن هذه الفترة كما فندتها في كتابتي عن الفترة الاولى ، بل ستكون كتابتي عن الامور الحيوية التي أشرت اليها آنفا كالحياة الاجتماعية والاقتصادية والصحية الخ . كلها مدمجة بهذا الفصل ، والسبب هـو انه لم يكن ثمـة فرق كبير بين الفترة الاولى وبين هذه الفترة ، فان يكن هناك شيء من الفرق فانه لم يكن فرقا جذريا ، أي مـن ناحية التطور الفكـري بصورة خاصة .

لقد تمت السيادة المطلقة في هذه الفترة للمرحوم الملك عبد العزيز ، لا على شمالي وشرقي الجزيرة فحسب ، بل وعلى غربها وجنوبها كوحدة كاملة كما هي قائمة الآن ، وهي خطوة موفقة لايستهان بجلالة قدرها ، جزى الله من غرس بذرتها وساهم بها خير مايجازي به عباده الصالحين . وعلينا أن لاننسى بأن هذه الوحدة المباركة

لم تتم الا بعدما لاقى المواطنون من أبنائها العناء والنصب والتضحية بالنفوس وبالدماء الزكية التي أريقت في سبيل تحقيقها من كلا الجانبين ، القدر الذي يجعلنا نؤمن بأنه ما من وحدة في التاريخ تتم بين المواطنين الا بعد ما يدفع المخلصون أرواحهم وأبناءهم قربانا لها فداء في سبيلها ، وأموالهم مهرا لزفافها المقدس ، واما الذين يظنون وهماً بأن تتم وحدة أمة ما بلا ثمن فهؤلاء اما انهم يجهلون تاريخ الامم التي تمت وحدتها أو اتحادها ، أو انهم يعللون أنفسهم بالآمال الوهمية والاماني المعسولة ، وعندما يقفون من الحقيقة وجها لوجه، عندئذ يصطدمون بالعقبة الكأداء التي لا يقتحمها الا المواطنون الافذاذ الذين جردوا أنفسهم من كل معنى من معاني الانانية والانتهازية والمصلحة الخاصة وجعلوا مصلحة أمتهم فوق كل شيء وبعد كل شيء .

وفي هذه الفترة تم القضاء النهائي على قوة الاخوان في عامي ١٩٢٨ و ١٩٢٩ وبعد القضاء على قوة أولئك الاشداء لم يبق أية قوة معارضة للملك في الجزيرة كما أنه بدأ التغير نسبيا ، فمثلا كان الاتصال بين الرياض ومكة المكرمة في موسم الحج على الابل حتى ان الملك نفسه يحج على الابل ، ولكن فيما بعد تغير الوضع وأصبح الملك وأسرته ومن يتبعه يحجون على السيارات ، اما السواد الاعظم من الشعب فقد كان حجهم على الابل ، ولكن بدأت

السيارات تنتشر عاما بعد عام حتى أصبح الجميع في نهاية هـذه الفترة يحجون على السيارات ما خلا بقية باقية من البادية ما زالت تستعمل الابل • وفي منتصف هذه الفترة وصل الى البلاد المذياع، وكان المفروض أن يكون مجيئه طامة كبرى على البلاد فيما لو جاء فجأة وبدون سابق انذار •• ولكنه لم يأت لحسن الحظ الا بعدما سمع به الناس ، وبعدما ألف أهل البلاد نوعا من الصناعة الحديثة كالسيارات مثلا واللاسلكي ، وبعدما أصبح لهم بعض الاتصـال بالعالم الخارجي وان كان ذلك الاتصال محدودا ، وبالتالي بعدما تواترت الروايات الكثيرة عن أخبار المذياع قبل أن يأتيهم فجأة ، فأصبحوا بين مصدقين وبين مكذبين ، وقد كان النوع الاخير أكثر عددا من الاولين ولكنهم ـ أي المكذبين ـ وان كثر عددهم في البداية فلا بد ان يتلاشىهذا العدد حتىيضمحل في النهاية ، وذلك خضوعا للامر الواقع ، ولا سيما وقد جربوا فيما سبق أن انكروا السيارة بل وحطموها معتقدين انها من أعمال الابالسة والسحرة ، ثم انهم تراجعوا وكذبوا أنفسهم وذهبوا يشترون السيارة بأغلى الاثمان ، كما جربوا أن أنكروا اللاسلكي ثم اضطروا أن يؤمنوا به وأصبحوا يرون أن وجوده كالسيارة ضرورة من ضـروريات الحياة التي لايستغني عنها المواطنون •

وهنا لابد من القول أنه لابد من وجود نفر معين من علمـاء

الدين ، يرون أن استعمال المذياع (الراديو) محرم ، وخاصة اذا استعمل للغناء ، ولكن الرأي العام مضى في سبيله دون أن يلتفت لرأي محرميه ، وأكثر شيء جعل الراديو مقبولا هو أن مجيئه صادف اندلاع نار الحرب العالمية الثانية ، مما جعله ضرورة لابد منها .

ولكن على الرغم من أن المذياع في أيام الحرب قد انتشر حتى أصبح كل مواطن قادرا على شرائه ، على الرغم من ذلك فاننا لانستطيع أن نقول أن الوعي الشعبي بلغ من سمو التفكير ونضج الادراك بشكل اجماعي ما يجعلنا نؤمن بأنه قضى على الخرافات القائلة بأن الراديو من صنع الجان والسحرة ، فالحقيقة هي انه وان تكن تلاشت تلك الخرافة من عقول الاكثرية الساحقة من الشعب ولكن الامر لايخلو من بقية رواسب في عقول القليل من سذج الشعب ، وعلى سبيل المثال اذكر أيامها مواطنا اعتقد انه لازال على قيد الحياة سمعته يقول : أنا لا أكذب حدسي بأن الذين ينقلون لنا الاخبار هذه لم يكونوا الا من شياطين الجان يصورون لنا الاحداث كيف يشاؤون ، ثم يمضي صاحبنا السطحي بحديثه قائلا : أجل فلو لم تكن الاخبار التي يتحدث عنها هذا (البلية) يقصد (الراديو) كلها محض افتراء وكذب من أساسها ، لولا ذلك

لما بلغ عدد القتلى من الجانبين (١) يوميا ما يزيد على مئات الالوف، ثم يستطرد صاحبنا قائلا : أجل وهل يوجد في الدنيا كلها بشر يبلغ عددهم من الكثرة ما يعادل القتلى الذين يشير اليهم هذا الشيطان المفتري •

وفي هذه المناسبة اذكر في أيام الحرب العالمية الاخيرة ، اذكر شخصا آخر سمعته يقول : أنا لا أشك قطعيا الا أن الجان يحاربون بجانب الجيش الالماني جنبا لجنب ، ثم يمضي مؤكدا بقوله : ولو لم يكن كذلك لما تمت لهم هذه الانتصارات على أعدائهم ، وهذا القول من صاحبنا الاخير قاله قبل أن تتحقق هزيمة الالمان طبعا • هذا وقد كان المذياع اذ ذاك يستعمل بواسطة البطارية ، والسبب هو انه لايوجد مؤسسة كهرباء في البلاد ، الا انه وجدت فيما بعد محركات كهربائية صغيرة محلية يستعملها بعض القادرين •

وفي عام ١٩٣٣ م الموافق ١٣٥٥ حصل في نظام الحكم ماتجدر الاشارة اليه وهو البيعة بولاية العهد لجلالة الملك سعود الحالي ، كما كان سمو الامير فيصل نائبا لوالده في المنطقة الغربية منذ فتحها ووزيرا للخارجية •• والجدير بالملاحظة انه لم يوجد في نظام الحكم فيما سبق اسم وزير ، أو وزارة ، الا انه بعد ذلك عين الشيخ عبد الله بن سليمان وزيرا للمالية ، وكانت لديه صلاحية

---

(١) يشير الى قتلى الحرب العالمية .

أشبه ما تكون بصلاحية رئيس الوزراء في نظام الحكم الجمهوري اذا لم أقل أكثر منها . وقد كان ابن سليمان هو أول وزير عين من أبناء الشعب. لما كان الامر كما أسلفت لم يوجد وزير غيره، فقد كانت كلمة وزير اذا أطلقت يعرف من معناها ان المقصود بها عبد الله ابن سليمان . هذا وقد فاتني أن أشير الى ان المرحوم الملك عبد العزيز لم يطلق عليه اسم ـ ملك ـ الا بعد مدة من توليته لغرب الجزيرة وجنوبها ـ أي بعدما تمت له السيادة المطلقة على انجزيرة بكاملها ـ وكان الاسم المعروف به عند أهل الجزيرة قبل ذلك هو الامام عبد العزيز ، ولا زال هذا الاسم هو الطابع البارز على أفواه المواطنين حتى آخر هذه الفترة وخاصة عند العلماء .. وعندما أقول « العلماء » أقصد علماء الدين لان الاصطلاح الدارج بين المواطنين يشير الى هذا المعنى .

هذا وقد عين بعد عام ١٩٤٠ المرحوم الامير منصور وزيرا للدفاع ، كما عين بعدها الامير عبد الله الفيصل بن عبد العزيز وزيرا للصحة والداخلية .. وقد كان المقر الدائم لهذه الوزارات غربي الجزيرة أي في مكة المكرمة في بداية الامر ثم جدة أخيرا . وكما ذكرت سابقا بأنه لم يحدث في الجزيرة من التطور الجذري في هذه الفترة الثانية ما يدعو للانتباه ، فان يكن شيء من ذلك فانما

هو ضمن نطاق محـدود على الاشياء الشكليـة التي يطيب لي الاشارة اليها بما يلي :

وضع شرطة للامن في الرياض فقط ، وهذه الشرطة في بداية أمرها لم يبرز على أفرادها الطابع العسكري كالبزة العسكـرية مثلا . وذلك مراعاة لسخط بعض المواطنين ونفورهم وهم يعتقدون ان من يرتدي البزة فانما هو يتشبه بالكفرة ، ومن تشبه بقوم فهو منهم حسب ما يؤمنون به ، فمعناه ان من يلبس بزة تشخص عضلات الجسم كالكفرة ، واذا لم يكن على حافة الكفر ، فانه مخالف لله ولرسوله . أو بالاحرى مخالف للعادات والعرف المألـوف الذي يوشك ان يكون سلطانه فوق كل شيء .

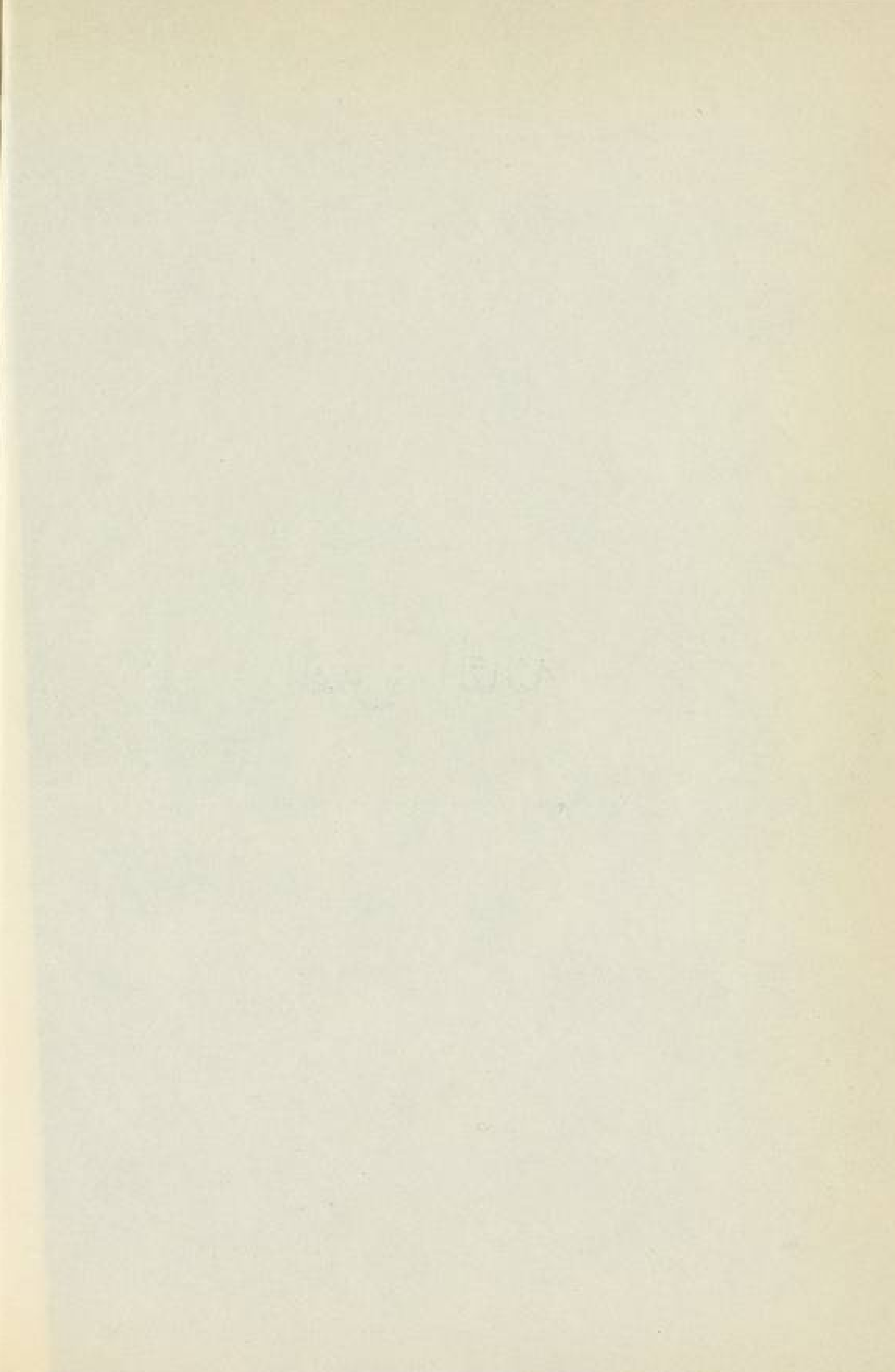
وبمناسبة ذكر العادات التي كان لها تأثـير فعال في اتجـاه المجتمع ، بهذه المناسبة اذكر انه حتى اللباس المعتاد في البـلاد المكون من عقال وغطاء للرأس المسمى (شماغ أو غترة) ثم عباءة وقميص فحذاء من الالبسة التي أجمع المواطنون على لبسها كزي شعبي ، حتى هذه الاشياء ، اذا شاء أحد المواطنين أن يغير واحدة منها مثلا (كالشماغ) الاحمر الذي يوضع فوق الرس ، اذا شاء أحد تبديله بقطعة من نوعه الا انها تختلف بالصبغة أي بدلا مـن كونه أحمر يكون أزرق ، فانه سوف ينظر اليه شزرا خاصة في شرقي الجزيرة .. ومن هذه الامور يعرف القـارىء ما يعانيـه

المجتمع من قوة سلطان العادات الطاغي على كل شي •

هذا وان النفور من ارتداء البزة لم يدم طويلا ، بل تقلص شيئا فشيئا حتى أصبح شيئا مألوفا • ومن الامور التي دخلت الجزيرة في الفترة الثانية وجود الاشعة الطبية •• وكان دخول هذه الآلة الطبية بعد عام ١٩٣٥ وهي البكر من نوعها ، أو لا يوجد قبلها شيء ، بل هي الوحيدة عند الطبيب الحكومي • كما انه وجدت صيدلية حكومية ، وهذه الصيدلية تقوم مقام المخبر الطبي حيث يوجد فيها طبيب طاعن في السن يدعى احمد ياسين وهو من سورية ، وهي أبعد ما توصف به من التأخر ، الا انها خير من لا شيء ، وهذه الصيدلية وجدت في مدينة الرياض فقط ، ولم يوجد في مدن المنطقة الشرقية والشمالية سواها •

وفي هذه الفترة تحسن وضع البلاد نسبيا من ناحية المعيشة ، وكما ذكرت كثرت السيارات ، وأصبح ثمة بريد في البلاد يسير في كل اسبوع مرة واحدة بين العاصمة الشرقية التي هي مدينة الرياض وبين العاصمة الغربية وهي مكة المكرمة •• بل وأكثر من ذلك فقد ظهرت في آخر هذه الفترة طائرة « داكوتا » ذات المحركين • وذلك بعد عام ١٩٤٥ • وفي آخر الفترة المذكورة تفجر أول ينبوع من البترول ، وكان الامر طبيعيا أن يتغير مجرى الحياة رأسا على عقب بعد تدفق الذهب الاسود كما يقال عنه ، الا ان الطفرة السريعة والتطور على شتى أنواعه ومراحله لم يأت الا بعد عام الخمسين •

الفترة الثالثة



الحياة الاقتصادية والاجتماعية

منذ النصف الاول من القرن العشرين بدأ التطور في شتى النواحي يسير سيرا حثيثا لا هوادة فيه • وقد ذكرت عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الفترة الاولى كيف كان أهل البلاد يقاسون من البؤس والحرمان الشيء الذي يعجز عنه الوصف •

كما ذكرت ان القوت الرئيسي كان التمر ، واما الآن فقد تبدل الوضع ، وشمل التقدم الاقتصادي عامة سكان المدن وارتفعت المعيشة ، وزاد مرتب العامل والموظف زيادة لا أستطيع تحديدها لانها فوق التصور ، خذ مثلا الفتى الذي دون سن البلوغ والذي يستأجر لخدمة المنزل ، لان الفتيات لايقبل أولياؤهن أن يخدمن في المنازل، انهذا الفتى اذا كان فقيرا أو يتيما كان سابقا يخدم في بيت أحد المواطنين مقابل كسائه وغذائه فقط ، ويرى هذا المواطن الذي

يستخدمه انه يمن عليه بمعيشته هذه ، كان هذا لافي الفترةالاولى فقط بل حتى في منتصف الثانية • أما الآن فان المواطن يفتش على من يخدمه من الفتيان بمائة ريال فلا يكاد يجد أحدا ، فان وجد فبعد العناء والمشقة •

كان الفقير المدقع الذي تبلغ به الفاقة حد التسول، كان اذا اضطر للسؤال لايسأل الا لقمة العيش أو حفنة من التمر ، واذا أعطي شيئا من ذلك التهم اللقمة التي تقدم اليه من يد المحسن بدون وعي، وذلك من شدة الجوع (١) • أما الآن فانك لن تجد في البلاد سائلا واحدا يسأل الطعام ، وانما يسأل النقود • ولكيما يتميز للقارىء جليا مقدار نسبة ارتفاع المعيشة ونسبة التطور الاقتصادي أقدم مثالا محسوسا كالآتي :

لقد كان مبلغ الغرامة التي يدفعها المواطن اذا قتل نفسا خطأ بدون عمد ، كانت الغرامة المدفوعة من قبل القاتل لاهل المقتول ثمانمائة ريال ،أما بعد ما ارتفعت الحياة الاقتصادية فان القاضي الشرعي قد لاحظ زيادة المعيشة بعين الاعتبار ، ثم قرر القضاة في المملكة أن تكون الغرامة ثلاثين ألف ريال • ومن هنا

(١) لازالت اذكر في اول طفولتي قصة مؤلمة عن سائل جاء يدق منزلنا مساء ، فأخذت والدتي من الطبيخ الذي كان أنزل عن النار بعد النضج وقدمته للسائل ، ونسيت أنه حار فالتهم السائل بعضه وعندما دخل جوفه صاح من شدة حرارته ثم وضع البقية على الارض وعاد يلعقها بعدما بردت .

ندرك مقدار نسبة ارتفاع المعيشة ومقدار نسبة التطور الاقتصادي والاجتماعي اللذين فوجئت بهما البلاد ، بظرف قصير جدا ، حيث يعادل ذلك الارتفاع أكثر من سبعة وثلاثين مرة عما كان عليـه ، أي عندما نقارن بين دية القتيل التي كانت ثمانمائة ريال سابقا ثم غدت ثلاثين الف ريال اليوم •

ولقد فاتني الاشارة في هذا العهد الى موضوع هام ، وهـو حفظ مالية الدولة حيث كانت في الفترة الثانية وحتى بداية الفترة الاولى غير محفوظة على النهج الذي تسير عليه الآن •

لقد كانت الامضاءات التي تعتبر سارية المفعول على خزينـة الدولة كثيرة • وان الانسان ليعجب كيف لا تعلن الخزينة افلاسها عندما نذكر الاوامر التي تصدر على المالية وينفذ الكثير منها بدون تردد ، فالاوامر التي لا ترد كانت كما يلي : أوامر الملك عبدالعزيز طبعاً • وولي عهده الملك سعود الحالي • والامير فيصل نائب الملك في المنطقة الغربية • وأوامر وزير المالية الشيخ عبد الله آل سليمان وهـذا قد تكون أوامره التي يصدرها على المالية فـي الطليعة ، وذلك أنه علاوة على كونه وزير المال فهو الرجل الوحيد الـذي لا يعارض ولا تناقش أوامره على الخزينـة • وذلـك ان الملك

عبد العزيز قد منحه صلاحية لا حد لهـا وكل ما في الامر انه اذا جاء آخر العام لميزانية الدولة يقدم الوزير للملك مجموع الشيء الذي صدر به أمر من قبله على المالية ، ومهما بلغت النفقات من الرقم القياسي فان الملك يوقع للوزير عليها ، فيحتفظ الاخير بهذا التوقيع ليبرزه فيما اذا دعا الامر اليه .

وفعلا بعدما توفي الملك عبد العزيز ، وبـدأت فترة التطور كان هناك من يقول بمناقشة الوزير ابن سليمان ومحاسبته عـن الاوامر التي أصدرها على المالية عندما كان وزيرا ، ولكن تلـك الفكرة لم تبرز الى حيز الوجود ، والسبب هو أن الوزير كـان محتفظا لنفسه بخط الرجعة باستناده على الاوامر التي كانت في حوزته من الملك عبد العزيز .

ومن الاوامر التي كانت سارية المفعول على المالية أمر الشيخ عبد الرحمن الطبيشي رئيس الخاصة الملكية . وأمـر حمد آل سليمان شقيق الوزير عبد الله . وأمر سليمان ابن أخي الوزير . وأمر محمد سرور الصبان عندما كان مدير المالية ثم وكيلا ثم وزيرا لها . وهناك بعض الامراء أنجال الملك الكبار كمحمد وخالد ، فقد كانت أوامرهما في بداية الفترة الثانية مقبولة الى حد قليل نسبيا وضمن نطاق محدود

للغاية ، وكان ذلك في بداية الفترة الثانية فقط •

وخلاصة القول هو أن الذي يوافق عليه وزير المال عبد الله بن سليمان ، فان أمره يكون مقبولا ، ومن يعارضه فلا قبول له مهما كان شأنه •

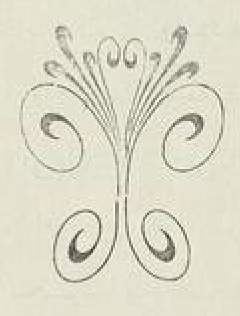
ومن المعلوم انه لم يكن للملك راتب محدود ، لايزيد عليه واذا كان هناك شيء من ذلك فمن الناحية الشكلية ليس الا ، أما من الناحية العملية فان الملك لا تقف نفقاته أو أوامره عند حد معين وعندما جاء الملك سعود ظلت الامور على ما كانت عليه أي لم يحدد للملك مرتب بصورة عملية ، اللهم الا انه بدأ التحديد لراتب الملك في عام ١٣٧٥ الموافق ١٩٥٥ • ولكن هذا التحديد لم يتخذ الطابع العملي الا في عام ١٣٧٨ الموافق ١٩٥٨ ، عند ذلك حدد للملك وأسرته ومن له به صلة ، مرتب معين لا يزيد عليه قطعيا •

وأصبح الملك لا يأمر على المالية ولا على شيء من خزينة الدولة الا ضمن مرتبه المخصص ، وما دام أن الملك قد توقف عن اصدار أوامره الى المالية ، فانه من بدهيات الامور ان لا تعتبر جميع تلك الاوامر التي كانت تصدر جزافا على المالية من الجهات المتباينة السالفة الذكر ، وهذا التطور الملحوظ كله منذ سبع سنوات فقط •

الناحية الزراعية

سبق ان ذكرت أنه لم يكن يوجد في البلاد أية آلة زراعية في الفترة الاولى ، وقد بدأ دخول الآلات الزراعية للبلاد في آخر الفترة الثانية ، ولكن النسبة كانت قليلة جدا ، ثم دارت الايام فاذا الآلات الزراعية تشمل كافة أنحاء الجزيرة . ويبدو أن النمو الزراعي في الجانب الكائن بين شرقي الجزيرة وشمالها المسمى بالقصيم سيكون أكثر انتاجا من غيره ، وذلك بحكم وفرة الآلات الزراعية ، التي أوجدها بتلك الناحية التجار المواطنون البررة آل راشد . وقد اثبتت التجربة بعد عملية الحفريات أن تحت تلك الارض بحرا من الماء القراح الزلال الذي لا ينضب مهما كثر استهلاك المستهلكين . ولئن كانت البلاد لازالت تستهلك بعضا من مواد الزراعة ، ففي اعتقادي انه لن تمضي مدة وجيزة حتى تستغني البلاد عن الاستيراد الزراعي من الخارج . هذا وسوف يتم حتما بعون الله

متى ما انشىء بنك زراعي اسوة بالبلاد المتحضرة ، وما دامت البلاد سائرة في سبيلها الى التطور فانه من كمال تطورها أن يكون فيها بنك زراعي يعين الفلاحين على تأدية مهمتهم على أكمل وجه . هذا وقد قدمت الحكومة لبعض المزارعين آلات زراعية على سبيل السلفة ولكنها بالتالي سامحتهم نهائيا بدفع قيمتها كتشجيع منها للزراعة .



الناحية الصحية

لا شك بأن البلاد تحتاج الى مزيد من العناية الصحية بالنسبة لاتساع مساحتها ، وخاصة القرى والبادية ، حيث تدعو الحاجة للرعاية الصحية الوافرة • ولكننا عندما نقارن بين ماتعانيه البلاد من الناحية الصحية ، لافي الفترة الاولى التيتعتبر بدائية،بلحتى في الفترة الثانية ، اذا ما قارنا بين تلك الفترة وبين هذه الفترةنجد بلا شك أن ثمة تطورا محسوسا من الناحية الصحية • وليس أدل على ذلك من عدد المستشفيات التي أنشئت فيهذه الفترةالوجيزة•

ففي مدينة الرياض توجد المستشفيات الآتية : مستشفى الملك عبد العزيز ـ مستشفى الملك سعود ـ المستشفى العسكري ـ مستشفى المعهد الصحي لتخريجممرضينومساعدين صيادلة وأشعة مختبرات •

أما المستوصفات في مدينة الرياض فأكثر من خمسة ومن بينها مستوصف لمكافحة السل • وفي بلدة بريدة عاصمة القصيم يوجد مستشفيان أحدهما للرجال والآخر للنساء ، ومستشفى في بلدة عنيزة • ومستشفى في بلدة المجمعة ، ومستشفى في بلدة حائل، ومستشفى في بلدة الجوف ومستشفى في بلدة عرعر ومستشفى في تبوك •

ومستشفى عسكري في الخرج ، وفي الخبر مستشفيان : واحد أهلي يدعى المستشفى الدويسري ، والثاني حكومي ، كما ان في الاحساء مستشفيين ، وفي بلدة الجبل مستشفى ، ومستشفى لا أذكر اسمه الآن يقال ان السفير سعود بن دغيثر أنشأه في الدمام • هذه سبعة عشر مستشفى لم يبرز منها واحد الى حيز الوجود الابعد فترة التطور • أما المستوصفات فانها بحسب ماروى لي الدكتور أحمد الطباع الملحق السعودي الطبي في السفارة السعودية ببيروت والذي نقلت عنه هذه المعلومات لاتكاد تخلو منها قرية في المملكة • ولما كنت أعرف أن الجزيرة فسيحة الارجاء فاني لا أستكثر هذه المستشفيات وتلك العناية الصحية بل أعتقد أن البلاد تحتاج أيضا الى المزيد من العناية بحكم كثرة سكانها واتساع رقعتها • ولكن الذي يدعو الى الاطمئنان هو اننا اذا نظرنا للتقدم الصحي بهذه السرعة فاننا نكون على يقين راسخ بأنه لن تمضي فترة وجيزة حتى

تأخذ البلاد حقها الوافر من العناية الصحية • وعسى أن يتحقق ذلك بعون الله •

وبعد فان هذه المستشفيات جميعا كما أشرت حديثة العهد ، وقد أنشئت في فترة التطور ، في الجانب الشرقي والشمالي من المملكة ، في تلك الاماكن التي لم يكن فيها قبل هـذه الفترة أي شيء من هذا النوع •

أما الجانب الغربي من المملكة فلم يكن فيه مستشفيات بالمعنى الصحيح • لم يكن في مكة وجدة والطائف والمدينة المنورة غير مستشفيات من النوع القديم جـدا كمستشفى جيـاد في مكة ، ومستشفى باب جديد في جدة الخ •• وهي من المستشفيات الهرمة التي أعتقد أنهـا ترجع الى العهـد العثماني أو قريب منـه ، اما المستشفيات التي أحدثت بعد فترة التطور في هذه المنطقة فانها كما يلي :

مستشفى الزاهر في مكة ــ مستشفى الرمد ــ مستشفى منى •

وفي الطائف : مستشفى الامير فيصل ــ المستشفى العسكري مستشفى للامراض العقلية ــ مستشفى السدود للسل •

وفي جدة مستشفى الملك سعود ــ مستشفى الولادة •

هذه المستشفيات كلها حكومية ، أما المستشفيات الاهلية بجدة فهي المستشفى اللبناني بجدة ومستشفى دريس أيضا في جدة .

أما المستشفى الذي في الظهران فانه تابع لشـركة أرامكو . ولذلك لم أضعه ضمن المستشفيات الحكومية ولا الاهلية وان كان من أحسن المستشفيات الحديثة .

وبعد فان التطور الصحي في البلاد مهما كان متقدما بالنسبة للحاضر ، ولكن بالنسبة لكثرة السكان فانه يحتاج الى مزيد من مضاعفة الجهود التي يبذلها المسؤولون .



الناحية الثقافية

لما كانت مواد كتابنا هذا قد استمددت الكثير منها من ذاكرتي لان بعضا منها بكر من نوعه ، ولما كنت الآن بعيدا عن المملكةوان كان لايخفى علي شيء من تطورها من شتى النواحي بصورة عامة، الا أنني أجهل التفاصيل الموضحة بالارقام عن نسبة عدد المدارس التي فتحت من جديد ، ولذا فقد طاب لي الاتصال بالملحق الثقافي لوزارة المعارف في لبنان حيث وافاني بكتاب أصـدرته وزارة المعارف السعودية بعنوان : (تقرير موجز عن تطور التعليم العام) في عام ١٩٦٠ ــ ١٩٦١

والى القارىء صورة طبق الاصل عن بعض ماورد في هـذا التقرير الوارد في حقل الكتاب المذكور موضحا كما يلي :

« تلقى وزارة المعارف استجابةكاملة وتشجيعا كبيرا من الدولة

التي لا تضن عليها بالميزانية الكافية لمشروعاتها الكثيرة • ولقد كانت ميزانية التعليم :

في عام ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠ : ١٢٢,٠٦٨,٠٠٠ ريال سعودي ، فأصبحت

في عام ١٩٦٠ ــ ١٩٦١ : ١٣٧,٠١٢,٢٠٠ ريال سعودي •

بزيادة قدرهـــا : ١٤,٩٤٤,٢٠٠ ريال سعودي أي بمقدار ١٢ ¼ ٪ من ميزانية العام الماضي •

وفي الجدول الآتي عــدد المدارس والفصول والمدرســين والتلاميذ في كل قطاع من قطاعات التعليم في عامي ١٩٦٠ــ١٩٦١:

نوع التعليم	عدد الفصول		الزيادة المئوية	عدد التلاميذ		الزيادة المئوية	عدد المدرسين		الزيادة المئوية
	١٩٦٠	١٩٦١		١٩٦٠	١٩٦١		١٩٦٠	١٩٦١	
الابتدائي	٣٧١٠	٤٤٠٦	٪١٨,٨	٨٥٨٤٧	١٠٤٢٠٣	٪ ٢١,٤	٤٠٥	٤٩٤٠	٪ ٢١
الثـــانوي	٧٦	٩٤	٪٢٣,٧	١٢٦٠	١٨٦٤	٪ ٤٨	١٧٤	٢٠٦	٪ ١٨,٤
المتوسط	١٨٠	٢٢٤	٪٢٤,٤	٤٤٦٦	٥٤١٧	٪ ٢١,٣	٣٥٧	٤١١	٪ ١٥,١
الصناعي المتوسط	٤٩	٥٩	٪٢٠,٤	٨٦٧	١٢٦٩	٪ ٤٦,٤	١٣١	١٥٠	٪ ١٤,٥
التجاري المتوسط	٩	١٨	٪ ١٠٠	٢١٤	٤٩٤	٪١٣٠,٨	١٥	٣١	٪١٠٦,٧
الزراعي المتوسط	=	٨	نوع جديد	١٩٨	نوع جديد	=	=	١٩	نوع جديد
الصناعي الثانوي	=	٢٨	نوع جديد	=	٨٠٧	نوع جديد	=	٩	نوع جديد
معاهد المعلمين	١٢٨	١٤٦	٪١٤,١	٢٦٨٧	٣٤٩٧	٪ ٣٠,١	٢٤٨	٣١٣	٪ ٢٦,٢

التعليم الابتدائي

ظفر التعليم الابتدائي من ميزانية التعليم في العام الماضي بنصيب أكبر مما ساعد على زيادة عدد المقبولين الجدد بالسنة الاولى زيادة طيبة . بل انها قد زادت على ما كان مقدرا لها في انعام الاول من مشروع السنوات الخمس .

المدارس المتوسطة الصناعية

لم تلق المدارس الصناعية في ماضيها مثل ما لقيت من اقبال الطلاب عليها في هذا العام ، وتعنى الوزارة بانشاء مبان جديدة كاملة الاستعداد لمواجهة الوعي الجديد نحو الصناعة والتصنيع .

وقد زيد على الاقسام التي كانت قائمة في الماضي قسمان جديدان هما قسم السجاد وقسم الاثاث المعدني .

وعلى ذلك أصبح في المدارس الصناعية السبع الاقسام الآتية:

كهرباء ـ برادة ـ حدادة ولحام ـ خراطة ـ سمكرة واعمال صحية ـ سيارات ـ سباكة ـ نجارة ونماذج ـ نجارة أثاث ـ نجارة عمارة ـ حفر على الخشب ـ بناء السفن ـ حديد زخرفي معادن ـ أثاث معدني ـ مبان ـ سجاد ونسيج ـ طباعة وتجليد نقش وزخرفة .

المدارس المتوسطة التجارية

لم يبدأ هذا النوع من المدارس الا في العام الماضي ، ومنذ اللحظة الاولى ظهر اقبال التلاميذ عليه وحبهم اياه . وفي مشروع السنوات الخمس ثلاث مدارس جديدة من هذا النوع علاوة على الاربع القائمة حاليا . وجدير بالذكر ان منهج الدراسة في هذه المدارس قد وضع بمشورة رجال المصارف والبيوت التجارية حتى لاتكون المدارس التجارية في معزل عن الجو الذي سيعمل فيه الطلاب بعد تخريجهم .

المدارس المتوسطة الزراعية

أنشئت في هذا العام الدراسي خمس مدارس من هذا النوع وزعت على خمس من المناطق الزراعية بالمملكة وزودت بالاجهزة والادوات والمختبرات . وكان اقبال الطلاب على هذا النوع الجديد من المدارس فوق ما كان ينتظر . فهذه أول نواة في التعليم الزراعي في المملكة ، وهو نوع من التعليم غير مألوف لدى الطلاب ولا أولياء أمورهم .

وقد ألحق بكل مدرسة حقل كبير للتجارب الزراعية حصلت عليه وزارة المعارف بالاتفاق مع وزارة الزراعة .

التعليم الثانوي

أصبحت المرحلة الثانوية الآن في اتجاهات ثلاثة : الثانوية

النظرية ، والثانوية الصناعية ، ومعاهد المعلمين الثانوية. وفي النية استحداث أنواع أخرى من التعليم الثانوي . ولم يكن قبل ذلك غير اتجاه واحد هو التعليم النظري المؤدي الى الجامعة .

أما الآن فقد أصبح في استطاعة الطالب ان يختار من بين الاتجاهات الثلاثة أكثرها ملاءمة لميوله واستعداداته وقدراته .

وكان من نتيجة ذلك أن تحول التيار نسبيا عن التعليم الثانوي النظري الذي كان دائما مقصد الطلاب جميعا ، واتجه الكثيرون منهم صوب الناحية المهنية والفنية .

ادارة التعليم الاهلي

زاد عدد المدارس الاهلية ، وانتشرت في أنحاء المملكة المترامية، بعضها يعمل في النهار ، وبعضها في المساء مما دعا الوزارة الى انشاء ادارة جديدة للاشراف على هذه المدارس غير الحكومية . وقد وضعت شروط لكل نوع من أنواع المدارس ينبغي توافرها في كل منها قبل أن تسمح الوزارة بفتحها . كما وضعت لوائح مفصلة لتنظيم العمل بتلك المدارس . ويقوم مديرو التعليم والمفتشون بزيارة هذه المدارس للاطمئنان الى سلامة ادارتها ومستواها العلمي وفقا للخطط والمناهج المقررة من الوزارة . وتعان هذه المدارس باعانات مالية أو تمنح بعض المدرسين ، كما

تصرف لطلابها الكتب بالمجان ، شأنهم في ذلك شأن طلاب المدارس الحكومية .

البعثات الخارجيــة

وما تزال الوزارة تبعث في كل عام عددا كبيرا من الطــلاب يدرسون في الخارج في الكليات التي لم تنشأ بعد نظائر لها في جامعة الملك سعود ، كالطب والزراعة والهندسة بفروعها المختلفة .

واقتضت المصلحة انشاء مكتب في اوربا للبعثــات السعودية اختيرت مدينة جنيف مقرا له مهمته الاشراف على الطــلاب الذين يدرسون في القارة الاوروبية ، ويبلغ عددهم في الوقت الحاضر ٨٢ طالبا يدرسون في سويسرا ــ ايطاليا ــ المانيا الغربية ــ انكلترا فرنسا ــ النمسا ــ تركيا .

وبهذا أصبحت مكاتب البعثات أربعة : في القاهرة (ج٠ع٠م٠)، وبيروت (لبنــان) ، وواشنغتون (الولايات المتحــدة) ، وجنيف (سويسرا) .

جامعة الملك سعود بالرياض

أتمت الجامعة عامها الرابع وكانت قد بدأت عامها الاول بكلية للآداب ، ثم زادت عليها في العام التالي كليــة للعلوم ، ثم كليــة

للتجارة ، واخرى للصيدلة في عامها الثالث •

وستتخرج هذا العام أول دفعة من كلية الآداب بدرجة ليسانس •

وقد استقدمت الجامعة خلال هذا العام الدراسي نخبة مختارة من أساتذة الجامعات العربية لاعطاء سلسلة من المحاضرات فيفرع أو آخر من فروع الدراسة ، وذلك لتحقيق الاتصال الثقافي بين الجامعة وغيرها من الجامعات • كما ابتعثت الجامعة بعض المعيدين لاستكمال دراستهم في الخارج تمهيدا لضمهم الى هيئة التدريس بها بعد حصولهم على درجة الدكتوراه • وبهذه الطريقة يمكن أن يحل الاساتذة الوطنيون تباعا محل الاساتذة غير السعوديين •

وزاد نشاط الجامعة في موسم المحاضرات العامة فالقيت هذا العام ٢٢ محاضرة في شتى أنواع المعرفة ، وهي تطبع وتوزع في الداخل وفي الخارج على الجامعات العربية بالشرق الاوسط ، وعلى دور الكتب العامة والهيئات الرسمية في أقطار العالم العربي والاسلامي •

وعرضت كلية العلوم بأقسامها المختلفة : الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا والنبات والحيوان بعض أوجه نشاطها في يومأسمته (يوم العلوم) لقي اقبالا شديدا من الرأي العام وطلاب المدارس

الثانوية الذين أظهروا شغفا وميلا لدراسة العلوم •

وقامت أقسام الكلية : الجيولوجيا والنبات والحيوان بعدة رحلات دراسية في أنحاء المملكة الشاسعة ، وجمع الطلاب عينات مختلفة من الصخور والاحياء • كل ذلك تمهيدا لانشاء متحف للتاريخ الطبيعي ومعشبة نباتية في المملكة • كما قام قسم الجغرافيا بكلية الآداب بزيارات متعددة للمناطق المحلية ذات الاهمية الجغرافية • وجمع الطلاب بتوجيه أساتذتهم معلومات قيمة عن تلك المناطق ، كما رسموا لها خرائط تفصيلية •

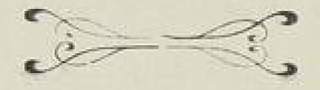
وقد أقيمت مبان للجامعة جديدة ومعامل جديدة لمواجهة نمو الكليات • كما أقيم مبنى جديد خاص بكلية الصيدلة يجري الآن تأثيثه واعداده لاستقبال الطلاب في أول العام الدراسي المقبل •

وقد استطاعت الجامعة خلال عمرها الصغير ان تكوّن لها مكتبة عامرة بالمراجع وأحدث المؤلفات الانجليزية والعربية صنفت وبوبت على أيدي أخصائيين في شؤون المكتبات تحت اشراف خبير استقدمته الجامعة لهذا الغرض • وقد تم فعلا وضع لائحة تنظم المكتبة العامة والمكتبات الفرعية •

ولم يقتصر النشاط الرياضي على ملاعب الجامعة والمباريات

الداخلية ، بل لقد اشتركت فرق الجامعة هذا العام في عدة مباريات خارجية .

وجدير بالذكر أن نشير هنا الى ان نظام الجامعة الذي وضع بعد دراسة شاملة قد صدر به مرسوم ملكي جعل منه دستورا تسير الجامعة على نهجه .



بيان بطلبة الجامعة لعامي ١٩٦٠ – ١٩٦١

الكليــة	السنة الاولى ١٩٦٠	١٩٦١	السنة الثانية ١٩٦٠	١٩٦١	السنة الثالثة ١٩٦٠	١٩٦١	السنة الرابعة ١٩٦٠	١٩٦١	المجموع ١٩٦٠	١٩٦١
الآداب منتظمون	٣٧	٥٥	٣٠	٢٩	١٥	٢٩	—	١٥	٨٢	١٢٨
= منتسبون	١٢	٥٣	—	٩	=	=	=	=	١٢	٦٢
التجارة منتظمون	٥٨	٨٥	—	٤٧	—	—	—	—	٥٨	١٣٢
= منتسبون	٢٢	١٢١	—	١٧	—	—	—	—	٢٢	١٣٨
العلوم	١٠	٢٨	١٠	٦	—	١٠	—	—	٢٠	٤٤
الصيدلة اعدادي	١٩	٢٢	—	١٧					١٩	٣٩

بيان بهيئة التدريس بالجامعة

الكليــة	استاذ ١٩٦٠	١٩٦١	استاذ مساعد ١٩٦٠	١٩٦١	مدرس ١٩٦٠	١٩٦١	معيد ١٩٦٠	١٩٦١
الآداب	٣	٤	٢	٣	٥	١٢	٤	٩
العلوم	٥	٦	١	١	١	٤	٥	٩
الصيدلة	١	٢	.	٢	.	١	١	.
التجارة	.	١	١	١	.	١	.	.

ويعمل في كلية التجارة سبعة أساتذة منتدبين من الخارج بعض الوقت .

وجدير بالذكر ان المملكة العربية السعودية قد أصبحت منذ هذا العام عضوا في مكتب التربية الدولي ، وهي تود أن تؤكـد تقديرها العميق للروح السامية التي قابلت بهـا الدول الاعضـاء

انضمام المملكة الى هذه المؤسسة العتيدة .

ووزارة المعارف السعودية ستحرص كما حرصت دائما على العمل بتوصيات المؤتمرات التي ينظمها كل عام مكتب التربية الدولي مع اليونسكو ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

كما انها ستبذل أقصى الجهود للاسهام في رفع النهضة التربوية نحو تحقيق التقارب الفكري والتفاهم الانساني والتعارف بين شعوب البشر ، تلك الاهداف التي بدونها لايستتب في العالم سلام ، .

انتهى ما ورد من التقرير المذكور .

وثمة معاهد لم تذكر بهذا التقرير لانها ليست تابعة للمعارف وانما هي تابعة للمفتي الاكبر الشيخ محمد بن ابراهيم ، وهي مقصورة على علوم الكتاب والسنة واللغة العربية والفقه على مذهب الامام أحمد . والمتخرجون من هذه المعاهد يكونون قضاة . وقد انشئت هذه المعاهد بعد فترة التطور وذلك في عام ١٩٥٤ وعددها عشرة موزعة على المدن الآتية : الرياض ـ المدينة ـ الاحساء ـ بريدة ـ عنيزة ـ حائل ـ المجمعة ـ شقرا ـ ابها ـ سامطة .

وذلك بالاضافة الى الجامعة الاسلامية التي أنشئت في المدينة المنورة في هذا العام الحالي .

وقد فاتني الاشارة الى المدارس العسكرية حيث يوجد كلية عسكرية في الرياض ، وهذه الكليـة انشئت بعد فترة التطـور طبعا ، ولها فروع في بلدة عنيزة وبريدة والرس الخ ..

هذا وقد سبق أن ذكرت بأنه لايوجد في البـلاد أية مدرسة على النهج الحديث حتى ولا ابتدائية وخاصة في المنطقة الشرقية والشمالية . اما المنطقة الغربية أي مكة المكرمة وجدة والمدينـة المنورة فانه يوجد فيها مدرسة الفلاح ، وهي مؤسسة من قبـل العهد السعودي ، ويعود الفضل لمؤسسها المواطن الكريم محمدعلي زينل . وفي بداية هذه الفترة فتحت أبواب المدارس على مصراعيها كما هو مشاهد من تقرير المعارف ، وراح الطلاب يدخلونها أفواجا، وأصبح المتزمت بالامس الذي يرفض أن يدخل ابنه بالمـدارس الحديثة معتقدا انه لن يتعلم غير علوم تخل بالدين ، هذا المتزمت أصبح اليوم يدرك ويعي بأن لاضمانة لمستقبـل ابنه الا بقـدر ما يرتشف من مناهل العلم . وما دام ان تفكير المتزمت بالامس قد تبدل بهذه السرعة فما بالك بمن سبقه بالوعي . والحقيقة أن الحكومة ساعدت على فتح المدارس وشجعت على التعليم حتى ان الذي يدرس في الصفوف الثانوية يمنح راتبا . والتعليم على شتى مراحله مجاني كله .

وقد كان شرقي الجزيرة وشمالها خلوا من صحيفة واحدة • اما الآن فانه يوجد ثلاث صحف اسبوعيـة كما يوجد صحيفـة شهـرية •

وكان القارىء لايجد مكتبة مختصة بجلب الكتب ، أما الآن فيوجد مكاتب عديدة في كل مدينة من مـدن المملكة • ويوشك أن لايطبع كتاب ذو أهمية علمية في الخارج حتى تجـده مكاتب البلاد • أما الادباء ، من كتاب وشعراء ، الذين برزوا في خـلال هذه الفترة بالذات ، فان عددهم بالنسبة للمدة الوجيزة المحدود زمانها الذي لايتجاوز أكثر من عشر سنوات بالنسبة لذلك ، فانهم يعتبرون طليعة مباركة لايستهان بنبوغهم وتفوقهم الادبي • وعندما يعود القارىء الى ما ذكرته في الصحيفة السابقة من هذا السفر يجد اني أكدت بأنه لايوجد في البلاد صحيفة واحدة كما أكدت بأنه حتى ولو قدر المستحيل ووجد شيء من الصحف فانه لايوجد كاتب واحد يستطيع أن يكتب في حقلها جملة واحدة •

وكذلك المطابع فقد كانت مفقودة • ولكنها بعد هذه الفترة بلغت اثنتي عشرة مطبعة ، وهي كما يلي : مطابع الرياض ، مطابع الجزيرة ، المطابع الوطنية ، مطبعة النهضة ، مطبعة الشرق ، مطابع

دار القصيم ، المطبعة الاهلية ، كل هذه المطابع موجودة في الرياض .
أما التي في الخبر والدمام فهي كالآتي : مطابع وزنكوغراف المنطقة الشرقية ، مطبعة الخليج العربي ، المطبعة السعودية ، شركة الخط للطباعة ، المطابع الحديثة .

هذا وانني لم أتعرض لذكر المطابع التي في المنطقة الغربيـــة ، كمكة وجدة والمدينة ، وذلك لان المطابع كانت موجودة فيها منذ القديم بخلاف الجانب الشرقي والشمالي اللذين لم يكن فيهما فيما مضى شيء من المطابع .



المواصلات

لم يكن في الفترتين الاولى ولا الثانية أي طريق معبد ، لافي داخل المدينة كالرياض التي تعتبر العاصمة ، ولا خارجها طبعا ، كما انه لم يكن ثمة ما يسمى بالسكة الحديدية .

ومنذ بداية هذه الفترة بدأ العمل بمد خط سكة الحديد الكائنة بين الرياض والدمام ولكن لم تستعمل الا بعد فترة التطور ، وقد أصبح الآن عدد الطرق المعبدة كالآتي :

طريق جدة مكة ـ وقد كان هذا الطريق معبدا قبل فترة التطور بمدة لاتزيد عن خمس سنوات ، وبعد هذه الفترة ادخلت عليه جملة تحسينات ، وأضيف اليه طريق مزدوج . وقد كانت الاصطدامات كثيرة خاصة في موسم الحج . ولكنه بعد ما أصبح هناك طريقان للذهاب والاياب زال خطر الاصطدام . ومن الطرق

التي أحدثت في فترة التطور الطريق الكائن بين جدة والمدينـة ، وكذلك الطريق الكائن بين مكة والطائف ، والطريق الممتد بـين المدينة وتبوك ، وطريق الرياض الدوادمي ، هذه الطرق كلها على وشك النهاية •

واما الرياض وضواحيها فكل طرقها معبدة ، وتأتي بعد ذلك الطرق التي تحت التنفيذ ، وهي الطريق الكائنة من الرياض الى القصيم مارا باقليم سدير والمحمل ، وطريق من بريده الى خف ، وطريق من الدوادمي الى الطائف ، ومن مكة الى وادي فاطمة الى القطيمة شمالا ، ومن القطيف الى الجبيل • وقد فاتني الاشارة الى الطريق المعبد المنتهي الكائن من الدمام الى القطيف •

أما الموانىء فلم يكن منها أي ميناء قبل فترة التطور • أما الآن فتوجد ميناء الدمام المنتهية في عام ١٩٥٠ والثانية المسماة ميناء الدمام الكبير المنتهي عام ١٩٦١ وميناء جدة ، ويحتمل توسعة ميناء جدة • وأما ما هو تحت التنفيذ من الموانىء : فميناء جيزان ، ميناء ينبع • ومعلوم بأنه لايوجد قبل هذه الفترة أي مطار ، والآن يوجد المطارات الحديثة الآتية : مطار الرياض ، مطار جدة ، مطار المدينة ، مطار الطائف ، مطار تبوك ، مطار الظهـران • وثمة مطارات تحت التنفيذ •

كما أن الطـائرات كانت مفقودة في المملكة • أما الآن فان الطائرات متيسرة بكثرة ، ومن الطائرات أربع محركات الى النفاثة• كما ان الاتصال بين مدن المملكة الذي كان في الفترة الاولى بالجمال ثم أصبح بالفترة الثانية بالسيارات فقد أصبح الآن بالطائرة النفاثة• وكذلك التلفون اللاسلكي أصبح الآن مرتبطا في الكثير من مدن المملكة •



التطور في نظام الحكم

منذ أول هذه الفترة بدأ شيء من التطور في أسلوب الحكم. وبالطبع لم يكن فيما سبق شيء اسمه مجلس وزراء ولا وزارات متعددة ، وجل ما هنالك هو وجود وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووزارتي الصحة والداخلية ووزارة المالية والاقتصاد . وكان الشيخ عبد الله بن سليمان ، كما ذكرت سابقا يضطلع بمهمة شبه مهمة رئيس الوزراء من حيث الواقع العملي . ثم انشيء بعد ذلك في آخر حياة الملك الراحل خمس وزارات : وهي الصحة والمعارف والزراعة والمواصلات والتجارة . كما انه بعد وفاة الملك أصبح هناك مجلس وزراء برئاسة ولي العهد الامير فيصل بن عبد العزيز.

وفي عام ١٣٨٠ الموافق ١٩٦١ شكلت وزارة من جديد برئاسة الملك سعود ، وأضيف اليها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية

ووزارة البترول .

وفي عام ١٣٨١ الموافق ١٩٦٢ حصل تعديل وزاري تـم فيه أن يكون الامير فيصل ولـي العهد نائبا لرئيس مجلس الوزراء بغياب الملك وبحضوره ، كما أضيف الى الوزارة السابقة وزارة الحج والاوقاف، وقد كان الحج فيما سبق مديرية، كما أن الاوقاف في المملكة كانت متشعبة ، أما الآن فقد وحدت الاوقاف جميعها وأصبحت مربوطة بوزارة الحج .

والجدير بالملاحظة هو أنه لاول مرة في تاريخ المملكة يدخل في الحكم ستة وزراء من غير الاسرة المالكة ، وبينهم من لاينتمي الى أية أسرة من الاسر الارستقراطية ، بل يوشك أن يكون كلهم أو أكثرهم من الطبقة الوسطى .

ولئن دل ذلك على شيء فانما يدل على تطور الفكر ، ولولا نمو اليقظة الشعبية وتطور الوعي القومي ، لولا ذلك لما كان أحد يتصور أن بعضا من الوزراء الشعبيين كان من موظفي الدرجـة الثالثة في عام ١٩٥٩ فأصبح وزيرا في عام ١٩٦٢

ولمعترض أن يقول : ألم يكن الشيخ عبد الله بن سليمان وزيرا للمالية والاقتصاد ، وكان يتمتع بسلطة لا كسلطة رئيس الوزراء ، بل كسلطة الملك ؟ ألم يكن هذا مـن أفراد الشعب ومن الطبقـة

البورجوازية أو ما دون ؟.. والجواب هو ان الظرف الذي جاء بابن سليمان يختلف اختلافا كليا عن الظرف الذي جاء به اولئك الوزراء ، فابن سليمان جاء للمالية في بداية نشوء الدولة ونموها، فظل ينمو بمركزه ووظيفته مع نمو الدولة جنبا لجنب ، وعندما نمت مالية الدولة على يده كان الأمر طبيعيا أن تنمو شخصيته ووظيفته مع نمو مالية الدولة . هذه ناحية والناحية الثانية ذات الاهمية هي انه في الحين الذي كان ابن سليمان وزيرا للمال كان أغلب ابناء الملك الذين تولوا الوزارات وتنافسوا عليها ، كانوا في عهد ابن سليمان صغارا ، ولم يكن من بينهم من يطمح للوزارة .

أما في الظرف الذي تولى فيه الوزراء الستة فقد كانت الوزارات شبه محدودة اذ لم تكن وقفا على الامراء فقط . ومن هنا يبدو واضحا البون الشاسع بين الظرف الذي كان به ابن سليمان وزيرا للمال وبين الظرف الذي جاء به الوزراء الشعبيون . وما يقال عن الظرف الذي جاء به الشيخ ابن سليمان يقال أيضا عن الظرف الذي جاء به الشيخ محمد سرور الصبان كوزير للمالية والاقتصاد، فان اختلف ظرف الاول من حيث الزمان فانه لايختلف ظرف الاخير من حيث التشابه والواقع .



الصناعة

كنت ولم أزل أود أن يكون الصدق رائدي في كتابتي هذه ، وأن أنقل الحقيقة للقارىء كما هي ، مجردة عن كل غاية ، وبعيدة عن الهوى والزيف ، لذلك أقول بأن الوضع الصناعي في البلاد لم يطرأ عليه شيء من التطور كما هو الحال في الاشياء الاخرى التي سلف ذكرها ، وذلك لاسباب عديدة منها : ان الانتاج الصناعي الحديث لايأتي الا بعد الدراسة العالية ، وبعدما يتخرج جيل من حملة الشهادات العالية ، ويتخصصون بدراسة مختلف فنون الصناعة كمهندسين . وبعد ذلك يمكن أن يتولى المتخرجون ادارة المصانع وتوجيه الجيل توجيها فنيا ، وما دام عمر المدارس منذ نشأتها حتى الآن لم يبلغ القدر الكافي لاخراج جيل لهذه الغاية فانه من البدهي أن لاتقوم المصانع الا على سواعد أبناء البلاد .
وكأني بمعترض يقول : ولم لاتقوم الحكومة بتأسيس المصانع

وجلب مهندسين من الخارج ؟.. ولماذا لايقوم المواطنون بتأسيس شركات صناعية تنتج ماتحتاج اليه البلاد كتأسيس معمل للنسيج ومثله للزجاج الخ .. من المعامل التي لاتستغني البلاد عن استهلاكها ؟..

ولا شك بأن هذا الاعتراض وجيه ، ولا بد من الاجابة عليه ، ولما كان الاعتراض يتضمن ناحيتين ، أو سؤالين : الاول هو ماينبغي أن تقوم به الحكومة بتأسيس المصانع ، والثاني ما ينبغي أن يقوم به المواطنون . لماكان السؤال ذا شقين فانه ليطيب لي بأن أؤكد بأنني سوف أجيب على السؤال الاول فيما بعد ببحث مفصل مستقل في نهاية هذا الكتاب لان الاجابة على ذلك تحتاج الى وضوح واقناع . ولهذا سوف يكون الجواب مؤجلا . واما الجواب على الاعتراض الثاني بشأن قيام المواطنين بتأسيس الشركات الصناعية ، هذه الناحية يؤسفني أن أجيب عليها بأن بعض المواطنين حتى الآن لم يعرف بعد ما تؤول اليه الاعمال الحديثة المشتركة من مصلحة عامة . والسبب الذي يؤسفني ذكره أيضا هو ان أغلبية الذين بيدهم رؤوس الاموال من المواطنين أميون ، فماذا نبغي مثلا من ثري يملك مئات الملايين من الريالات وهو لايعرف كتابة اسمه ؟ وماذا تريد من ثري يملك ادارة بنك كبير وهو الآخر لايعرف من القراءة

والكتابة أكثر مما يعرفه سلفهالسابق ؟ وما دام ان هناكمن أصحاب رؤوس الاموال من هم على هذه الصفة أو ما يقرب منها فانهم مهما توفر لديهم من صفاء النية وحسن القصد ونبوغ الفكر الذي خولهم كسب هذا المال كما يقال .. مهما يكن لديهم من ذلك فانه ليس من السهولة بمكان أن يكون لديهم من نمو الوعي وسمو التفكير ما يجعل أحدهم يستطيع أن يفهم ما يفهمه المتعلم الفاهم للتطور الحديث ، وما يستوجب مسايرة الحضارة بكل معنى من معاني التقدم والرقي .

هذا ولا بد من أن أشير الى شيء نسبي من المصانع ، فقد انشيء مصنع للاسمنت في جدة ، وآخر فيالمنطقةالشرقية ، وثالث في الرياض . فالاول بدأ ينتج منذ عام ١٩٥٨ وكذلك الثاني بدأ ينتج في هذه الايام ، والاخير على وشك أن يبرز الى حيز الوجود كما انشيء مصنع للذخيرة في الخرج .

التطور في السلك الخارجي

من المعلوم انه قبل فترة التطور لم يكن هناك أية سفارة خاصة ني البلاد العربية ، وكل ما يوجد من التمثيل السياسي كان بدرجة مفوضية ، ومجموعها كان لايتجاوز خمس عشرة ممثلية ، أما الآن فقد بلغ عدد الممثليات ما يزيد على الثلاثين ، وكلها بدرجة سفارة، ما عدا نسبة محدودة بدرجة مفوضية ، كما انه لم يكن هنـالك رئيس بعثة من أبناء البلاد برتبة سفير في بداية الفترة الاولى ، ما عدا أربعة اشخاص فقط ، واما الآن فان رؤساء البعثات كلهم من أبناء الجزيرة ، وان يكن هناك أحد فانه من اخواننا أبناء البـلاد العربية المجاورة الذين جاءوا للجزيرة منذ بداية تأسيس الدولة ، وأصبح لهم من الواجبات بحكم خدماتهم القديمة كما كان لابن البلاد ، وقد كان نظام وزارة الخارجية لا يمنع من قبول أي عربي

من اخواننا أبناء البلاد العربية ، بحكم عدم وجود المتعلمين من أبناء البلاد • أما الآن فقد صدر في نظام وزارة الخارجية لعام ١٣٧٤ الموافق ١٩٥٤ ما يشير الى عدم انضمام أي كان للسلك الخارجي ما لم يكن من أبناء البلاد ، كما انه كان مقبولا أي مواطن يحسن الكتابة والقراءة في السلك الخارجي • وبعد صدور النظام المشار اليه أصبح لايقبل دخول أي كان في السلك السياسي ، مالم يكن من حملة الشهادات العالية •



الناحية التجارية

كنت أشرت بأنه لم يكن فيما سبق أي بنـك من البنـوك والمصارف .. ولكن الآن أصبح في البلاد بنك كبير كما أصبـح فيها عدة مصارف يتولى القيام بها موظفون من قبل آل الراشـد، وهم ابراهيم الراشد الحميد واخوانه .. هؤلاء لهم في كل بلدة من مدن المملكة فرع ، وهذه الاشياء التي أشير اليها موجودة في الناحية الشرقية والشمالية التي سبق ان نوهت عنها . أما الجانب الغربي من المملكة فانه لايخلو في الاصل من المصارف والبنوك.

وقد أشرت سابقا بأن تجار المملكـة كانوا يتاجرون بالابـل ليذهبوا بها الى سورية ومصر والسودان . والجدير بالملاحظة هنا هو أن الامر انقلب رأسا على عقب حيث أصبح اولئك التجار الذين يذهبون بالابل والغنم من المملكة الى الخـارج ، أصبح هـؤلاء

أنفسهم يشترون الابل والغنم من بادية سورية والعراق ويجلبونها الى المستهلكين في المملكة ، كما أصبح لتجار البلاد اتصال بالعالم الخارجي لا العربي فقط ، بل حتى في أوربا وامريكا ، وحتى في الاتحاد السوفياتي حيث استورد بعض منهم سيارات من الكتلة الشرقية . كما أنه تبدل الوضع عما كان عليه من قبــل من حيث رأس المال الذي كان يأخذه التاجر ابن الجزيرة من أثرياء الخارج، فأصبح التاجر الآن من أبناء المملكة هو الذي يقدم ماله لتاجر من البلاد الاخرى ليعمل الثاني على سبيل المضــاربة ، أي ان الاول يقدم المال ويقوم الثاني بالعمل ، والكسب بينهما مشترك .



التكافل الاجتماعي

الواقع ان الدوافع الى الاعمال الانسانية والاجتماعية ليست مفقودة في نفوس ساكني الجزيرة • بل ان الدوافع كثيرة وافرة ولكن على شكل فردي ، لا على النهـج الاجتماعي الحـديث • وأعود هنا مكررا ما قلته في الفصل السابق عن أحد الاسباب في تأخر الصناعة ، وما أشرت اليه بأن السبب هو وجود رأس المال بيد الأميين وأشباه الأميين ، واني أؤكد هنا كذلك بأن الاسباب التي أخرت شيوع التكافل الاجتماعي بـين المواطنـين هي نفس الاسباب التي ألمعت اليها من عدم نمو المؤسسات الصناعيـة في الوطن •

ولما كان المال كما يقال هو عصب الحياة بل روحها •• فكيف والحالة هذه يرجى أن يكون ثمة تكافل اجتمـاعي على الوجـه

المطلوب وسط مجتمع يكون أثرى ثري فيه أميا ، لايفقه شيئا عن الاعمال الاجتماعية الا بقدر ما يقوم به من صدقات فردية مبعثرة تضر بالمواطنين ، وتجرح شعورهم ، وتهدر كرامتهم أكثر بكثير مما تفيدهم ؟ فهذا المواطن الذي يملك من ملايين الريالات ما لا حصر له ، والذي ينفق كما يقال أكثر من ثلاثة ملايين على الفقراء والمساكين في شهر رمضان ، ترى لو كان لهذا المحسن قدر من العلم يجعله يعرف شيئا عن ثمرة الاعمال الاجتماعية الخالدة ألم يكن بامكانه أن يبني مؤسسات اجتماعية على النمط الحديث؟ ولكن انى للأمي الجاهل أن يعرف شيئا من أعمال التضامن الاجتماعي غير ما يقوم به من أعمال فردية انعزالية مضرتها للمجتمع أعظم من فائدتها ؟ والحقيقة ان المال اذا كان بيد جاهل فانه أشبه ما يكون بالسيف بيد أعمى مجنون ، عينا بعين ، لا فرق بين هذا وذاك . فبقدر ما نرى أن المجنون وهو مفقود البصر اذا ملك السلاح أضر بالمجتمع ، وفتك بالمواطنين ، بقدر ما يضر الثري الجاهل بماله المجتمع ، ويسيء اليه من حيث يدري أو لا يدري، سواء بما يسمى صدقات وهبات أو هدايا الخ ..

ولقد كتبت في هذا المعنى المقالات الضافية في صحف المملكة، وأكدت بأن ما ينفق في سبيل الصدقات المبعثرة يضر المجتمع

ويسيء الى المواطنين أكثر بكثير مما يفيدهم • وقد أوضحت وجهة نظري هذه بكتيب جمعت فيه المقالات التي كتبتها بهذا الشأن • وكان من رأيي أن تجمع مثل تلك النفقات الفردية المبعثرة التي يقوم بها بعض الاثرياء وغيرهم ، وتوحد جميعها وتضاف اليها الامـوال التي تنفق أحيانا من جانب الحكومة بصورة مماثلة لما ينفقه اولئك الاثرياء ، ومن ثم تجمع كلها ويتولى ادارتها نفـر ذوو اختصاص بالاعمال الاجتماعيـة يوكل اليهـم القيام بتأسيس المـؤسسات الاجتماعية على شكل المؤسسات الحديثة •

وما دام قد انشئت حديثا وزارة للعمل والشؤون الاجتماعية فاني لشديد التفاؤل بأن هذه الصدقات الفردية والهبات الشعبيـة منها والحكومية المبعثرة ، اذا ما جمعت ووحدت فانها سوف تشكل مبلغا من المال حرياً بأن يفيد المواطنين ببناء مؤسسات لايواء الايتام والعجزة والارامـل من أبناء هـذا الوطن العزيز ، وخاصة مـن حكمت عليهم ظروفهم القاسية بالبؤس والحرمان، فأصبحوا بحاجة الى من يجمع شملهم ، ويكفل لهم حيـاة هنيئة سعيـدة بصورة مستمرة باقية ، بدلا من أن يقدم لهم بعض القروش التي لاتسمن ولا تغني من جوع •

والذي يسرني أن أشير اليـه هو انه بعـد فترة التطـور ،

سمحت الحكومة بتأسيس دور للايتام ، فانتشرت في أمهات مدن المملكة كما [1] عنيت الحكومة بالبحث الاجتماعي والخدمة الاجتماعية في المدن والقرى والبادية ، وتتعاون في هذا وزارات المعارف والزراعة والصحة وانشئت لذلك ادارة جديدة ألحقت في الوقت الحاضر بوزارة المعارف تمهيدا لجعلها ادارة مستقلة في المستقبل .

وانشيء هذا العام أول مركز قروي للتنمية الاجتماعية يخدم سكان القرية التي انشيء فيها في النواحي الصحية والاقتصادية والثقافية ويبلغ عدد سكان القرية ستة آلاف .



(١) هذه الفقرة نقلتها عن التقرير الموجز عن تطور التعليم العام لوزارة المعارف لعام ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ص١٩ .

الطابع البارز على شعور المجتمع في فترة التطور

تحدثت في الفصل السابق عن الطابع البارز على محيا جيل ذلك المجتمع في أول القرن العشرين ، وربما حتى آخر الثلث أو النصف الاول منه . لقد ذكرت بأن الطابع بالدرجة الاولى كان الشجاعة وقوة الساعد واكرام الضيف الى آخر ما هنالك من العادات العربية الاصيلة ، ولست بحاجة الى ان أؤكد بأن تلك الشيم من المثل العربية راسخة بدم العربي ولحمه ، ولا يستطيع أن يتجرد عنها بكل سهولة ، ولكن علينا أيضا أن لا نجهل ما للتطور الزمني من تأثير على أخلاق وعادات الجيل ، وتلك ظاهرة محسوسة ، ولئن اختلف علماء النفس في هذا العصر في أي العاملين أقوى تأثيرا على سلوك المرء وأخلاقه ، أهي الوراثة ؟ أم المجتمع والزمان ؟

ولئن قال بعضهم بالاولى مستدلا على نظريته بأدلة يطول شرحها وقال غيرهم بالثانية مستشهدا أيضا بأدلة قوية .. أقول لئن اختلف رأي الفلاسفة في هذا العصر ، أي الناحيتين أعظم مفعولا على خلق المرء وسلوكه ، فان الكلمة التي قالها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، سوف تكون هي الحكم الفاصل بين أصحاب النظريتين حيث قال : « الناس بزمانهم أشبه به من آبائهم » ، والعجيب في الامر هو ان عمرا رضي الله عنه لم يقل أشبه به من أجدادهم بل قال أشبه به من آبائهم ، اذن يكون تفكير من بلغ سن الرشد من أبناء الجزيرة في النصف من القرن العشرين يختلف اختلافا جذريا عن تفكير والده . فاذا كان الأب يحمل تفكير جيل الجمل فسيحمل الابن تفكير جيل الصاروخ ، والذي لمسته وشاهدته هو ان ثمة تطورا فكريا عظيما ، لا بالنسبة لجيل ما بعد نصف القرن العشرين فقط ، بل لمن هم قبل ذلك بسنين . فمثلا كان التفكير السائد يقضي بأن شجاعة الساعد هي الميزة الحسنة التي يتصف بها الابطال ، اما الآن فقد أصبحت شجاعة العقل ورباطة الجأش وهدوء الاعصاب هي التي يحترم صاحبها وينظر اليه نظرة اجلال واعجاب .

وقد كان تفكير الجيل السابق تفكيرا قبليا محضا ، أي لا يفكر

ولا يهتم ولا يفخر الا بالمجد المحصور على قبيلته ان كان بدويا أو على بلدته ان كان حضريا .

أما اليوم فقد أصبح تفكير الجيل أبعد مدى من أن يكـون محصورا على هذا النطاق القبلي الجاهلي الارعن ، فبفضل هـذا التطور الفكري بات لدى الجيل من النضج العقـلي المحسوس يجعله ينظر لامته العربية كوحدة لاتتجزأ من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي . وبقدر ما كان يفخر بمجد قبيلته اذا كتب لهـا الفوز والنصر على قبيلة أخرى ، وعلى عكس ذلك يتألم اذا هزمت قبيلته في غزوة ما ، أصبح الآن يرقص طربا عندما يسمـع بغارة انتصر بها أبناء عمه الجزائريون على الطغاة المغتصبين الفرنسيين ، كما أصبح لا يهدأ له بال ولا تنام له عين اذا سمع بمصرع أحد مـن شهداء اخوانه الجزائريين على يد الغزاة السفاكين . وبقدر ما كان تفكير ابن الجزيرة محصورا على ان تكون قبيلته هي سيدة الموقف على القبائل الاخرى ، وبقدر ما كان يحرص على أن لاتدب التفرقة في رجال قبيلته ، أصبح الآن لايفكر الا بالوسائل والاعمال التي تتحد بها أمته ، ولا يداعب فكره ، ويدغدغ خياله ويعزي نفسه الا ما يرجوه من آمال يبني عليها سعادته واطمئنانه وهي اللحظـة التي يرى فيها أمته العربية متحدة ، بأي شكل من أشكال الوحدة

أو الاتحاد ، وتلك هي أقصى آمال أي مخلص من أبناء الجزيرة ، وأسمى ما يصل اليه تفكيره من أمنية سعيدة هنيئة . وبقدر ما كان ابن الجزيرة يؤمن بأن ابن سيد العشيرة يجب أن يرث هذه السيادة حتى ولو لم يرث من مقومات سيادة آبائه وأجداده ما يؤهله لقيادة القبيلة وسيادتها ، وبعدما كان هذا التفكير الموروث متأصلا في نفوس جيل الجمل ، بقدر ما تطور فكر الجيل الراهن الذي أصبح يرى بأن السيادة والزعامة والمجد ، كل هذه المعاني أصبح يرى انها تصنع ولا تورث ، وتكسب ولا توهب ، وان ليس للمرء من المجد الا ما صنعه هو بيده ، لا ما ورثه من آبائه . وهو منطق ينسجم والتعاليم الاسلامية كل الانسجام حيث يقول القرآن الشريف « وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » . وكما كان التفكير الطاغي على شعور الجيل السابق هو أن من ترك له آباؤه سلطة أو مالا ، فانه يمكن أن يسود في مجتمعه أو يبرز على الاقل بقدر ما ناله من هذا التراث بصرف النظر عن كون الوارث متعلما أو جاهلا . أما الآن فقد بلغ التطور الفكري حدا جعل هذه الاشياء لا أهمية لها ، وانما الاهمية كلها للعلم والكفاءة والاستقامة والجد والاجتهاد . وكذلك كان سيد القبيلة اذا وهب فردا من أفراد القبيلة شيئا يعتبر الموهوب ان هذه الهبة صدقة من سيد قبيلته وحسنة منه ، هكذا كان التفكير الاول ، اما الآن فقد

أصبح التفكير يتنافى كل المنافاة والمنطق الاول ، فقد أصبح تفكير المواطن يرى انه أكبر من أن يحسن اليه مواطن مثله ، وأصبح يعتقد ان ما كان يسمى عند الجيل الاسبق صدقة وحسنة ، فانما هو حق واجب من حقوقه كمواطن لافرق بينه وبين سيد القبيلة بالواجبات الوطنية ، بل أصبح كل مواطن يرى أنه عضو عامل في المجتمع ، وأمة قائمة بحد ذاتها .

وعلى أي شكل كان فان التطور الفكري في الجزيرة تغير تغيراً جذرياً فوق ما يتصوره البعيد عنه ، وكما أشرت ، فعلى قدر ما كان تفكير المواطن محدودا على قبيلته أو بلدته ، فقد أصبح تفكيره أفسح وأشمل نحو أمته العربية بكاملها ، من أقصى المغرب العربي ، الى أقصى المشرق العربي .

وبقدر ما كانت الكلمة الاولى والاخيرة للعادات القبلية الموروثة ـ أصبح السباق الاول للعلم ولا شيء غير العلم .

الحياة الديموقراطية

لقد ترددت كثيرا في الحديث عن الديموقراطية ، تلك الفتاة الحسناء الرشيقة التي كل يدعي وصلها ، وكل يتغنى بغرامها ، وكل يزعم أنها معشوقته الوحيدة ، وانها لاتشرك بغرامها له أحدا سواه .

ولست أعلم أهل عاشقوها يفترون عليها ، ويدعي كل عاشق لها بأن غرامها وقف عليه لايشاركه بها شريك ولا ينافسه منافس ؟ أم أن مصدر الافتراء هذا منبثق من جمالها الرائع وقوامها الفاتن وعذوبة حديثها الجذاب الماكر الذي أسر لب كل عاشق من عشاقها حتى ظن وهما كل من ابتلى بغرامها أنه هو وحده الذي سلمته مقاودها ، وأخلصت له بغرامها ومنحته ولاءها ؟

كانت هذه الاشياء الحيوية هي مصدر حيرتي بالتردد في

الكتابة عن الديموقراطية ، تلك العيطبول الفاتنة التي كثر عشاقها المتنافسون عليها بهذا العصر ، والعاشق دائماً يكون غيورا ، لايحب أن يذكر أحد ولو على سبيل الاشارة ، بأن معشوقته تميل بغرامها لعاشق آخر ، حتى ولو كان هذا العاشق ، شقيقه أو ابنه ، وزادني ترددا وحيرة عندما أدركت بأن كل عاشقيها أو أكثرهم ينقصهم اعلان الصراحة بمواجهتهم لمعشوقتهم بالحقيقة ، والصدق البريء من كل زيف وتضليل ، وربما كان لعاشقيها من العذر ما يبرر عدم مصارحتهم لها بالحقيقة ، فهم يدركون جميعا بأن المعشوقة أو المحبوبة أو كلتيهما ، سواء كانت شرعية أو غير شرعية ، بأنها لاتوهب ولا تباع ، ولذلك نجد المغرمين بها مضطرين أن يخادعوا أنفسهم بعدم مواجهتهم لعشيقتهم بالحقيقة وجها لوجه ، كما أنهم في نفس الوقت لايريد أحد منم أن يتحدث عنها الا بقدر ما يكون هذا المتحدث لديه من الفطنة والحذر ما يجعله يحاسب نفسه حسابا دقيقا بأن لايغيظ بحديثه شعور أي عاشق من عاشقيها الفتيان الاشداء الذين يملك كل واحد منهم من القدرة ما يجعله يقضي على حياة هذا المتحدث بدون أن يخشى أدنى عقاب .

تلك قضية الديمقراطية ، أو الحرية ، لافي الجزيرة فحسب ، بل في جميع العالم البشري بشكل عام وفي العالم العربي بصورة خاصة .

ورغم ترددي واحجامي فاني مضطر بأن أتحدث عن الديموقراطية، والسبب هو أنني وضعت لها زاوية في الفترة الاولى ، فأصبحت مرغما بأن أضع مقابلها زاوية مماثلة في فترة التطور وفقا للاسلوب الذي سرت عليه في كتابتي هذه •

ولكن المشكلة التي سوف أصطدم بها عندما أقدم على الكتابة بهذا الشأن هي مشكلة مزدوجة ، وفيها جانب من الصراحة الشيء الذي لايطمئن لاستماعه الا من ألفت نفسه قبول الحق ، مهما كان مصدره ومهما كان نوعه •

كما ان فيها جانبا آخر من الصدق والواقع ، الشيء الذي يخيل لمن لم ير ولم يسمع الا اطراء المنافقين وثناء المادحين من بعض الكتاب الذين امتهنوا هذه الحرفة الممقوتة والبضاعة الخاسرة ، قد يخيل لهذا الآخر أو يظن وهما بأن ما سوف أذكره من الواقع والحقيقة والصدق انما هو من قبيل التزلف والنفاق •

وهنا وقفت مرة أخرى حائرا مترددا بين ذكر الشيء الذي لايطمئن لسماعه الا من ألف قول الحق ورضي به مهما كان قاسيا وبين من لم يطرق اذنيه ولم تر عيناه ـ الا تزلف المنافقين وتزوير المدلسين •

وأخيرا ذكرت حكمة خالدة لاحد فلاسفة العرب والاسلام ،

وهــو الشيخ شمس الدين محمد بن قيم الجوزية عندما قــال :
(العمل من أجل الناس شرك ، وترك العمل من أجل الناس رياء) .
ومعلوم ان الرياء هو الشرك الخفي .

لقد دفعتني هذه الحكمة الى الامام، وزادتني شجاعة بأن أقول ما أعتقد أنه صواب . فان أصبت بكتابتي التي أعاهــد ضميري والتاريخ على ألا أكتب الا ما أعتقده حقيقة لا مراء فيها ، فهــذا ما تصبو اليه نفسي ، وان أخطأت باعتقادي هذا ، فلا يــلام المرء بعد الاجتهاد .

* * *

لقد سبق ان ذكرت بأن العربي ديموقراطي بسجيته وفطرته التي فطره الله عليها . ولا عجب في ذلك فهو ابن الصحراء النقيــة بهوائها ، الفسيحة بأرجائها ، لايقفل عليه باب ، ولا تطوقه أسوار مدينة ، يرحل عن جار السوء متى شاء أن يرحل ، وينزل في أي أرض أراد أن ينزل بها ، بدون أن يستأذن أية سلطــة ، فهو دائما حر طليق كالطير يغرد ويصدح فوق أي غصن يريد ويقطف ثمرة أية شجرة يهوى .

هذا هو الخلق العربي الاصيل ، محب للحرية الطليقة التي لا قيد فيها ولا تحكم بارادته . ومن ثم أراني عندما أحاول ذكر التطور

الفكري من الناحية الديموقراطيـة والحرية كأنني أظـلم العربي وأعتـدي على تاريخـه اذ أزعم بأنه تطـور فكريا من الناحيـة الديموقراطية بهذا العصر . بل ان الديموقراطية والحرية هي خلق أصيل في نفس العربي ، مطبوعة بلحمه ودمه منذ فجر التاريخ ، سواء في الجاهلية أو في الاسلام ، بل الذي أعتقده جازما هو أن الذين يزعمون الديموقراطية ويدعون الحرية والمساواة في عصر النور هم الذين تطوروا فكريا من الناحية الديموقراطية بتأثـير الديموقراطية العربيـة والاسلامية التي كان لهـا الفضل الاسبق بتطوير الفكر البشري أجمـع . أما ان المقلدين الذين اختلسوا منـا أبرز صفاتنـا وتطبعوا بهـا حتى روضوا أنفسـهم على ممارستها فوضعوهـا دستورا لنظـام حياتهـم الاجتماعيـة ، وانجيـلا يهتـدون بهـديه ، اما ان هـؤلاء يختلسون منـا هذا التراث المقدس ونحن نعود الى الخلف ونأخذ منهم مخلفات أخلاقهم السيئة التي نبذوها، وراء ظهورهم، ومن ثم يظن السطحيون اننا تطورنا فكريا من ناحية الحرية ، وان مصدر هذا التطور جاءنا من غير بيئتنا وأهلنا ، أما ان نخدع أنفسنا الى هذا الحد ، فهذا شيء لايقبله ولا يهضمه أدنى عربي عرف تاريـخ العرب بصورة شاملة وعرف تاريخ جزيرتنا العربية بصورة خاصة في عهدها القريب جدا ، والمعروف حتى أول هـذه الفترة مـن القرن العشرين الذي نحن في صدد الكتابة عن مراحله الثلاث .

والحقيقة التي لاتحتاج الى دليل هي أنه عنـــدما كان عرب الجزيرة في معزل عن العالم فانهم وان كانوا يعانون الشيء الكثير من البؤس والحرمان والبعد عن مظاهر المدنية ورفاهيـــة العيش ، ولكنهم كانوا يملكون من سمو الخلق واباء النفس وديموقراطية الطبع ومحبة الحرية والانطلاق ، ومن رصيد الكرامة ، أكثر بكثير مما يتبجح به الغربيون بما يسمونه عهد نور وتطور •

فاذا كان هذا العهد يسمى عهد نور فانه بالنسبة للنفر الذين كان يتحكم بعقولهم وأفكارهم البابا والكنيسة ويسيرهم رجـال الكهنوت ، كالآلة المسخرة • أما بالنسبة للعربي الذي لايـؤمن الا بالله ، ولا يستكين الا لما يمليه عليه ضميره وشممه واباؤه فانه لايرى هذا العصر كما يراه الاولون عهد حرية ونور ، والسبب هو أن العربي منذ أن عرف الدنيا كان يعيش بانطلاق وحرية ، كذلك هذا العهد فانما يتمثل عهد نور بالنسبة للشعب الانجليزي الذي كان يتحكم به حاكم كالملك شارل الذي كان يرى أن له الحـق الالهي على رعيته ، وبالنسبة لشعب كالشعب الفرنسي الذي كان يتحكم بمقدراته لويس السادس عشر ، ثم بالنسبة لشعب كالشعب الروسي الذي كان يحكمه القيصر نقولا ومن ورائه راسبوتين • نعم ذاك عهد نور بالنسبة لشعوب لديهم مثل هؤلاء الحكام الذين زوروا

لانفسهم فنونا من الاجلال والالقاب والفخفخة، الشيء الذي اعتبروه وقفا لهم دون سواهم ، من سواد الشعب كالجلالة والقياصرة واللوردات والنبلاء والبرنسات والسلاطين والباشوات وأصحاب المعالي والفخامات والسعادات والغبطة والفضيلة وصاحب العزة والسماحة والسمو والعطوفة والرفعة الخ .. أجل هو عهد نور بالنسبة لهؤلاء الذين مزقوا الالقاب بعدما انغمسوا مدة حياتهم الطويلة بعبادتها وتقديسها ، أما بالنسبة للعربي الذي لم يعرف منذ نشأته الالقاب ، ولا عظيم عنده بعد الله الا الحق ، ولا ينادي أي انسان مهما علا شأنه الا باسمه المجرد من كل مظهر من مظاهر التقدير والعظمة ، فانه لم يعتبره عهد نور كما آمن الاولون الذين كانوا غارقين في دياجير الظلمات ، هو عهد نور لتلك الامم التي كان يفرض عليها ملوكها وقادتها الانحناء والخنوع وتقبيل الاقدام والركب والايدي والارض أيضا ، هو عهد نور حقا لهؤلاء الشعوب الذين لم يتحرروا من استعباد واذلال قادتهم وملوكهم لهم ، الا بعد ثورات دامية ، أما بالنسبة للعربي الذي عاش منذ نشوء البشرية شامخ الانف ، لاينحني ولا يخضع الا لقوة الحق وجلالة البارىء، فانه لم ولن يعتقد بأنه عهد نور بالنسبة لتاريخه الحافل بالشمم والانفة والشهامة .

فالشعب العربي الذي اعتاد على الحرية ورضع ثدييها منذ نعومة أظفاره الى الدرجة التي جعلت أبسط مواطن فارسي ، حتى وان لم يكن عربيا ، يتحدى أعظم حاكم عرفه التاريخ العربي والاسلامي كعمر بن الخطاب ، حين خطب ذات يوم فقال : من رأى منكم مني اعوجاجا فلينصحني . فقام سلمان الفارسي منتضيا سيفه وقال : (اذا اعوججت أصلحناك بهذا) مشيرا الى سيفه ، وفي مناسبة أخرى قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطيبا فقال : أطيعوني ما أطعت الله فيكم . فوقف منه سلمان الفارسي ثانية قائلا : لاسمعاً لك ولا طاعة يا ابن الخطاب لانك مرتد ردائين ، والمسلمون على رداء واحد . فقال عمر : أجبه ياعبد الله بن عمر ، يقصد ابنه ، فأجاب عبد الله بأن رداء والده الاسفل ممزق وان الرداء الذي يرتديه هو عارية له أي لابنه عبد الله .

وبعد ، فاني لا أعتقد بأن شعبا كهذا الشعب العربي الاصيل بابائه والعريق بشممه، والمعروف تاريخيابشموخه عن الذل ونفوره من الاستكانة والخنوع ، والمحب للحرية ، يصح أن يعتبر هذا العصر قد جاءه بجديد من الحرية والديموقراطية المزعومة ، بل الشيء الذي تسوؤني الاشارة اليههو أن بعض العادات التيكانت بقدر ماهي محترمة ومقدسة عند من يسمون أنفسهم رجال عهد

النور والحضارة ، بقدر ما هي محتقرة ومنبوذة في الجزيرة حتى بداية الثلث الاول من القرن العشرين • ولكن رذاذ مكروبها المعدي طار الى جزيرتنا العربية متفشيا في المجتمع من حيث لا يشعر أهلها • أما ما هو تشخيص هذا المكروب حتى تفشى في المجتمع؟• ومن المتسبب بنقل هذه العدوى المخالفة في أكثرها لعادات وتقاليد العرب ، والقاضية في بعضها على شمم المواطن وكرامته ؟ •

فالجواب على ذلك يكون كالآتي : اما من خصوص تشخيص المكروب فانني أعني ما ابتلي به المواطنون من الالقاب التي لم يكن لها أي أثر ولا وجود بين ظهرانيهم من قبل كما ابتلي أيضا بعادات كانت أبعد ما تكون عن خلق وشمم أبناء الجزيرة ؟ وهي تقبيل اليد التي من مقتضياتها الانحناء والخضوع للانسان الفاني •

واما السبب في نقل تلك العدوى وتسربها للبلاد فقد جاءت من بعض اخواننا العرب مع الاسف الذين نقلوا لبلادنا تلك العادات التي كان لها الطابع البارز على كيانهم منذ العهد التركي • وهكذا سرت هذه العدوى حتى تغلغلت في صميم المجتمع • والذي يدعو الى العجب هو ان شخصا من اخواننا العرب من الاقطار التي أصدرت قانونا بمنع الالقاب ، هذا الشخص كان يعيب مواطني الجزيرة بقيامهم بالعادات التي أشرت اليها ، فقلت لصاحبي انها لم

ترد الى عرب الجزيرة الا عن طريقكم فقال: ولكن نحن نبذناها وراء ظهورنا، فقلت ولكنكم لم تنبذوها الا بعد مضي قرون من رسوخها في نفوسكم . قال : ولكننا في النهاية حكمنا عليها لا بالسجن المؤبد بل بالموت النهائي . قلت : وما دام انكم استطعتم ان تتخلصوا منها بقدر مارسخت في نفوسكم مدة لا تقل عن ثلاثمائة عام ، فانه لجدير بابن الجزيرة أن يركلها بقدمه ، وان يقضي على جذورها التي لم تتأصل بعد في النفوس كما تأصلت في نفوسكم احقابا طويلة ، ومع ذلك استطعتم القضاء عليها وحسم آخر ما تبقى من بذورها.

لم يكن لدي أدنى شك بأن هذه العادات الدخيلة على خلق أبناء الجزيرة سوف تزول بطبيعتها ، وذلك لاسباب عديدة : منها انها منافية لخلق وطبائع أهل البلاد الاصيلة . ومنها أن نفس أصحاب الشأن لم يكونوا محبذين لها منذ الاساس، وخاصة المرحوم الملك عبد العزيز ، فقد كان من أشد المتمسكين بالخلق العربي ، وكان يحارب علانية تلك العادة الطارئة أي تقبيل اليد ، ولكنه في آخر أيامه غلب على أمره ، ولا سيما بعد ما كبر وأصبح لعامل السن مفعوله على كيانه . والذي أعتقده انها في طريقها الى التلاشي والذهاب الى غير رجعة . هذا وانه ليحسن بي أن أشير الى ناحية فاتني التنويه بها ، وهي التميز بين الديموقراطية التي يتمتع بها

المواطن من حيث المعاملة الخاصة بينه وبين أكبر مسؤول بالاسرة الحاكمة من الملك الى أدنى واحد من هذه الاسرة، وبين الديموقراطية التي لها علاقة ماسة في حرية التعبير والنقـد والمعارضة لسياسة الدولة . فمن الناحية الاولى نجد المواطن عندما يجتمع بأحد من أفراد أسرة الحاكم ، من الكبير الى الصغير ، فانه لايشعر بأدنى شيء يشير الى التعـالي والتمييز ، بل قد يجـد المواطن مـن الديموقراطية ولين العريكة ودماثة الخلق الشيء الذي لم يجـده عند بعض موظفي الدولة الكبار أو حتى الوسط، وهذه الناحية يعود الفضل فيها الى الخلق العربي الاصيـل الذي ورثه العرب عـن تراثهم المجيد ، والى التعاليم الاسلامية السمحة التي جاءت موطدة لما كان صالحا من أخلاق العرب ونابذة لما هو سيء ، كما يعود فيها الفضل أيضا للمرحوم الملك عبد العزيز الذي كانت تلك الصفة من أبرز صفاته . ولئن اختلف ابناؤه أو من يمت اليه بأدنى صلة مـن صلات القربى بمقدار التراث المعنوي أو المادي الذي نال كل فرد منهم حظا منـه ، فانهم لايختلفـون بنسبة التراث الخلقي الذي ورثوه وتساووا جميعا بأكبر قسط ممكن من هذه التركة المعنوية، فان زاد أحدهم على الآخر فان الزيادة قـد لاتكون محسوسة ، اللهم الا الشاذ منهم ، فهذا لا حكم له ، وانما الحكم على الاغلبية كما هي القاعدة المطردة . ولما كانت الامانة التاريخيـة في العرف

الادبي لاتقل وزنا وأهمية عن الامانة في الامور المادية ، من أجل ذلك فاني أسترعي كريم انتباه القارىء بأن لايعتبر حكمي هـذا قاعدة مطردة بصورة شاملة ، بل اني أعني من الاسرة الحاكمـة النفر الذين جالستهم وحادثتهم ، وبعبارة أوضح أعني الذين بلغوا من العمر العشرين سنة وما فوق ، هؤلاء هم الذين أعنيهم بحكم معرفتي لهم ، اما من هو من هذا السن فما دون فانني لا أستطيع أن أحكم له أو عليه لعدم معرفتي به .

وما دام أننا انتهينا من الحديث عن ديموقراطية المعاملة ، فلا بد من التحدث عن الديموقراطية ذات العلاقة بحرية النقد والمعارضة لسياسة الحكم وحرية الرأي وحرية الصحافة ، فهـذه الاشياء أتحدث عنها بما يلي :

أما من خصوص حرية المعارضة فانه ما دام لايوجد مجلس أمة فان من مسلمات الامور ان لايكون ثمة معارضة ذات صبغة شرعية ، وأي معارضة تبدو والحالة هذه فان مصير صاحبها من العقـاب سيكون بقدر ما تتصف به هذه المعارضة من قوة أو ضعف . هذا مع العلم بأنه في عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ كان ثمة اشاعة قوية تفيـد بأنه سوف يؤلف مجلس للأمة ، ولكنه لم يتم شيء من ذلك حتى الآن . وأما حرية الصحافة فانها بالنسبـة للفترة التي قبل هـذه

الفترة فانها متحررة • وقد كانت عليها رقابة حتى عام ١٩٦٠ حيث رفعت عنها الرقابة واصبحت حرة • والحقيقة ان القارىء في بعض الاحيان يجد كتابة من بعض الكتاب النزيهين المخلصين على أعمدة الصحف فيها من الصراحة والجرأة الشيء الذي لا أظن انه ينشر في صحف بعض البلاد التي ينبغي أن تكون حرية الصحافة أكثر منها في صحف الجزيرة بحكم انه بقدر ما تكون صحف هذه البلاد عريقة في صحافتها أو حضارتها بقدر ما تكون جزيرة العرب قريبة العهد بالصحافة والحياة البدائية •

واذكر في هذه المناسبة ان صاحب صحيفة اليمامة ورئيسها المسؤول الاستاذ حمد الجاسر كتب في عام ١٩٥٩ مقالا لا أذكر عنوانه وانما الذي أذكر منه هو انه يقال أن فيه عبارة تشير الى نقد العلماء ، فظن نفر من هؤلاء بأنهم المقصودون بالنقد ، فقدموا شكواهم الى المسؤولين ضد الجاسر ، فما وسع السلطة الا أن استدعته واعتقلته • ولكنه لم يلبث في السجن أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام فقط • ومن أجل أن يعرف القارىء مدى التطور الذي حدث بهذا الصدد بين الفترة الثانية وبين الفترة الاولى من حيث حرية المواطن فانه ليطيب لي بأن أؤكد بأنه لو سجن الاستاذ حمد الجاسر بتهمة نقده لعلماء الدين في الفترة الثانية فانه قد يلبث في السجن

مدة حياته وقد لايجد أي مواطن يشفع له ، وربما لم يجد أيضا من يزوره ما دام أن الملك غاضب عليه ، وصاحب الدعوى ضده أكبر عالم يشار اليه بالبنان من علماء الدين . هكذا كـان يحصل لا محالة فيما لو اعتقل الجاسر قبل منتصف القرن العشرين .

اما وقد كان سجنه في فترة التطور فانه أولا لم يلبث في سجنه أكثر من المدة التي أشرت اليها بالسياق . ثانيا : ان عـدد الذين زاروا الاستاذ الجاسر في سجنه خلال مدته القصيرة أكثر من مائتي مواطن بما فيهم عدد من نفس الامراء وكبار موظفي الدولة .

« بعدما أنهيت كتابة هذه الجملة اجتمعت بالاستاذ حمد الجاسر في بيروت ، وذكرته بسجنه مؤكدا له بـأنه لو كان مسجونا في العهد الذي قبل فترة التطور لما وجد مـن يسأل عنـه ، فأجابني الاستاذ الجاسر قائلا : « وما أدراك انني سجنت في عـام ١٩٤٣ ولبثت في السجن أربعة عشـر يوما في حالة يرثى لهـا بدون أن يزورني أدنى مواطن يذكر » .

والذي تجدر الاشارة اليه هو ان الاستاذ الجاسر عندما سجن في المرة الاولى كان قاضيا سابقا ، ولا زال يتمتع بحرمة القضاء ، أما في سجنه الثاني فلم يكن أكثر من مواطن كرئيس تحرير جريدة اسبوعية ، وزيادة على ما تقدم فقد كان سجنه الاول لايمت الى

الامور السياسية بأية صلة من الصلات ، بينما التهمة التي أخذ بها في السجن الثاني وان لم تكن ذات شأن كبير ، ولكنها لو وقعت في الفترة السابقة لما كان عقابه عليها الا الموت لا محالة .
ومن هذا يتضح مقدار مدى التطور الفكري الشعبي بين الفترة الاولى والفترة الاخيرة .

وثمة ملاحظة أخرى تحسر النقاب عن الفرق الكبير بين الفترة الاولى وبين الثانية .. ففي الفترة السابقة لم يسبق قط ان سجن أي مواطن بأدنى تهمة تمت الى توزيع منشور مثلا يشير الى مطالبة السلطة بطلب المزيد من الاصلاح العائد نفعه للوطن بصورة عامة، لم يحدث شيء من ذلك قطعيا خلال الفترة الاولى والتي تليها ولا بشكل من الاشكال .. وكل الذي كان يحصل هو انه اذا سجن أحد أو قتل بتهمة سياسية فانما تكون تلك التهمة مطبوعة بالطابع القبلي المحدود ضمن نطاق التعصب لهذه القبيلة أو التحيز لتلك البلاد أو تلك الزعامة العنصرية البائدة . هكذا كانت التهم السياسية التي كان مصير أصحابها السجن أو القتل احيانا . أما الآن فقد نسبت لبعض المواطنين تهم سياسية وجهت اليهم بتهمة توزيع مناشير ، ولكن لم يكن في هذه التهمة الشيء الذي يشم منه أدنى رائحة تتصل بكثير أو بأقل من القليل بالاشياء القبلية أو الاقليمية

التي كان يتحيز له رجال تلك الفترة ، بل انما هي ذات طابع شعبي بعيد كل البعد عن طابع خرافة القبيلة والزعامات الاقليمية الهوجاء.

وهكذا يبدو الفارق الكبير بين تلك الفترة التي اذا سجن فيها الملك أحدا أو قتله فانه لايتجرأ أحد أن يزوره في سجنه أو يشيع جنازته ، بل ولا يتجرأ أحد أن يسأل عنه : لماذا سجن أو قتل ؟.. بل كانت الكلمة الدارجة الشعبية التي يؤسفني ان أذكرها هي انه اذا سجن مواطن من قبل الحكومة أو قتل كان السؤال والجواب عنه هذه الكلمة (الشيوخ ابخص) معناه أن لا أحد يسأل عنه الا الجهة التي عاقبته فانها هي العالمة بجرمه . وهي التي لها الحق بعقابه وليس لاحد مهما كان حق الاستفسار عن أسباب هذا العقاب ومسبباته .

هذا ولا بد أن يرى القارىء تباينا بين ما كتبته في هذا الفصل عن الحرية والديموقراطية التي يتمتع بها شعب الجزيرة ، وبين ماذكرته الآن عما يتمتع به المرحوم الملك عبد العزيز من السلطة التي لاتخول أحدا من المواطنين أن يسأله عن تصرفاته فيما اذا حكم على أحد بالسجن أو بالموت . لاشك أن القارىء سوف يجد تباينا بين العبارات الاولى وهذه الاخيرة . ولازالة اللبس أؤكد للقارىء بأنني محق وصادق بحديثي في كلتا الحالتين. فأما عن الاولى ، أي

الحياة الديموقراطية والحرية الكاملة التي كان يتمتع بهاالمواطن، فقد كان يتمتع بها البدوي في الجزيرة أكثر مما يتمتع بهاالحضري • وكان ذلـك في الفترة الاولى أي قبل عام ١٩٢١ وعـام ١٩٢٧ وحتى الحضري بتلك الفترة فقد كان يتمتع بحرية أكثر من حريته بعد هذه الفترة ، وهي دون حرية البدوي طبعا • أما بعد تاريخ الفترة الاولى ، أي بعد ما تمت للملك عبد العزيز السلطة الكاملة في الجزيرة بكاملها ، وبعد أن تمت وحدة البلاد على يده ، وأصبح يتمتع بسلطة لاينازعه بها منازع • عند ذلك أصبح الامر طبيعيا في أن يعفو أو يعاقب من يتهم بأي تهمة سياسية بـدون أن يرى أو يسمع من المواطنين أية معارضة تذكر • والسبب يعود الى أمرين رئيسيين أولهما أن الرجـل كان حكيما الى أبعد حـد ، وخاصة بمعرفته لخلق العرب ودراسته لنفسيتهم وعلمه الراسخ الوطيـد بما يرضي العربي ويكسب عطفه وولاءه حتى ولو قتل أباه وأخاه[1] ومن تصريحاته التي رويتها عن الثقاة نقلا عنه والتي تعبر أبلغ التعابير عن أنه بني سياسة حكمه ووطد أركان ملكه عليها هي ما يقوله ذات يوم في مجلسه العام • يقول الملك : انني كانسان خرجت عـلى الدنيا وأعدائي أكثر بكثير من الموالين لي ، وبالتالي انتصرت على

---

١ ـ سوف أشير الى هذه الناحية عندما آتي الى ذكر السبب الذي مكن الملك عبد العزيز من سيادته للجزيرة •

أعدائي في شتى الميادين الحربية ، وبعد ما تم لي النصر عليهم فانني وان كنت قوي الذاكرة ولا أنسى قطعيا كل من كانت بيني وبينه أدنى خصومة ، ولكنني في نفس الوقت أكافح نفسي حتى أنزع من قلبي العداوة القديمة وأحاول ما استطعت بأن أجعل من عدوي بالامس صديقا مواليا . وعندما أتمكن من أن أنسيه عداوته ، عندئذ يكفيني شره . هذا اذا كان عدوي عاقلا وكريما ، أما اذا كان لئيما ، فهو لايفيد فيه حسن معاملتي ، بل انه يرتكب ضدي شتى الاعمال السيئة ، ومن ثم يأتيني من يحذرني حاملا الي كل دقيقة وجليلة من حركاته وأعماله المعادية . فأغض طرفي عنه من ناحية ، وآخذ بالحذر والحيطة من ناحية ثانية ، الى أن يتمادى في شره ويستغرق في ضلاله ، والى أن أدينه أكثر بالأدلة والحجج التي تدمغه ويكون لي فيها الفلج عليه ، فان أنزلت به بعدئذ الضربة القاصمة كان المجتمع كله بجانبي ، شاهدا لي عليه.

وهكذا نجد ان السر الذي كان يجعل الملك عبد العزيز اذا انتقم من أحد لايجد معارضا أو مناهضا ، انما هو سلوكه من السياسة التي تحسم الطرق في وجه أي معارض له كما أشرنا . أضف الى ذلك انه لم تتم له الوحدة الكاملة في البلاد الا بعد أن قضى على كل من يكون لديه شيء من قوة المعارضة .

الصراع بين الجديد والقديم

كان الصراع ولم يزل عنيفا وقاسيا الى أبعد حد من حدود القسوة بين جيل الجمل وبين جيل الذرة والصاروخ • وكل منهما يكافح بكل ضراوة وشدة في سبيل ما يؤمن به عن عقيدة واخلاص ، ويوشك الا يكون بينهما من يقبل انصاف الحلول ، من أقصى اليمين الى أقصى الشمال ، فبينما الاولون يرون كل جديد لم يألفوه ضلالا ومنكرا ، كذلك يرى الآخرون كل قديم يجب أن يقوض ويبنى من جديد • وظل الصراع قائما بين الكتلتين كما ظل المسؤولون محايدين وحائرين بين الكتلة التي يمثلها الاقدمون وبين الكتلة التي يمثلها التقدميون ، وبين تزمت الاولين وتطرف الآخرين ، وحيرة المسؤولين والمحايدين ، بين هذه الجهات الثلاث يأتي التطور الزمني الذي لايقبل الرجوع الى

الخلف ، ولا يرضى الهدوء والاستقرار ، بل ولا يؤمن الا بـأن يسير قدما الى الامام ، فمن سار بجانبه كتبت له النجاة ، ومن وقف أمامه سحقته عجلة التطور • وأمام هذا التيار الجارف يستيقظ المحايدون الحائرون من حيرتهم ويفيقون من سباتهم ويكون لديهم من الشعور ما يجعلهم يدركون ان مسايرة قافلة التطور أسلم عاقبة من الوقوف أمام العاصفة ، وان مخالفة الشيخ القديم الهرم أهون عاقبة وأسلم خطرا من تحدي الجديد الناشىء ، فتسير السلطة منذ الفترة الاخيرة بجانب الجديد الى حد ما مع الاحتفاظ بخط الرجعة نحو القديم •

وفي الحين الذي ترى القوة المهيمنة أن هيمنتها لا تدوم ولا تستمر بقدر ما تسير وتطور الزمان جنبا لجنب ، في ذلك الحين يـأتي القديم المزمن فيناضل نضال المستميت مطالبا بأن يترك له كل ما كان يتمتع به من امتيازات واستحقاقات كانت جارية له قبل فترة التطور واليقظة •

فتصاب القوة المهيمنة بحيرة أخرى بين ما تقتضيـه ظروف التقدم بكل معنى من معاني هذه الكلمة ، وبين ما تطالب به من قبل الجانب الآخر من واجبات وضروريات كانت متعهدة بدفعها وملزمة بالقيام بها منذ أن تأسست هذه الدولة • فمن رأس عشيرة كان يعيش هو ورجال أسرته على النهب والسلب ، فحالت القوة المهيمنة بينه وبين

مايقوم به من اختلاس يخل بالامن وجعلت له من خزينـة الدولة ما يقوم بأوده ، وينسيه القيام بعمل كتلك الحرفة القبيحة ، وبين أسر كان لكل منها زعامة على جانب من جوانب الجزيرة عنـدما كانت الجزيرة مجزأة ، فجاء موحد الجزيرة المغفور له الملك عبد العزيز فقضى على هذه التجزئة وتلك الزعامات ، ولكي ينسى هؤلاء الزعماء لذة زعامتهم وحلاوة سيادتهم ، ولكي يستولي على قلوبهم كما استولى على حكمهم ، وليأمن مكرهم وانقضاضهم .. مـن أجل ذلك كله وضع لأفراد هذه الاسر ولكل من يمت اليهم بأدنى صلة من صلات القربى مخصصات شهرية مغرية وقواعد سنويةمن خزينةالدولةوبين مستشارين وموظفين قدامى كانت القوةالمهيمنةترى انهم من بناةهذهالدولة منذ بدايةتأسيسهافرأت أن تمنحهم مكافأةعلى خدماتهم ، وحيث انه لايوجد لدى الدولة أوسمة كرمز معنوي تمنحه لمن يقوم بخدمات للوطن كما هو العرف المعمول به عنـد الدول المتحضرة ، لذلك رأت القوة المهيمنة أن تضع لهذه الفئـة قواعد سنوية عدا مرتباتهم الشهرية .

ويضاف الى هذه العوامل الثلاثة الداخلية التي تستهلك مـن ميزانية الدولة القسم الوافر ، يضاف الى ذلك واجبات خارجية قد لاتكون الدولة ملزمة بالقيام بها ولكنها كدولة عربية أو بالاحرى

كدولة قريبة العهد بالعادات البدائيـة العربية والكرم العـربي الموروث ، بصرف النظر عن كون هذه العادات تتنافى وتطـور العصر الحديث أو لا تتنافى ، فهذا شيء ليس موضع بحث بالنسبة لما تتحدث عنه كواقع محسوس ، المقصود ان هناك امورا تبنتهـا الدولة منذ قيامها فأصبح من العسير جدا أن تتخلى عنهـا ، وان كانت خارج نطاق حدودها ، وان لم يكن أيضا ثمة سبب الزامي يضطر السلطة المهيمنة القيام بها ، اللهم الا ما يسمى بالكرم العربي، ليس الا ، فمثال ذلك عندما يقصد الدولة شخص عربي من خارج حدود المملكة ، ولم يكن لهذا الشخص أية التزامات على الدولة، ولم يكن لها من وراء مؤازرتها له أي هدف سياسي ، وكل مافي الامر ان هذا الشخص من أسرة عربية عريقة في كرمها ومجدها ، ولكنه في آخر أيامه عضه الدهر بنابه ، وفقد كل ما بين يديه من مال كان ينفقه في الواجبات العربية العامة والخاصة ، وأصبـح بعدما كان يعطي بحاجة الى أن يعطى ، وبعدما كـان يهب أمسى بحاجة أن يوهب ، وبعدما كان يجبر عثرات الكرام بات بحاجة الى من يجبر عثرته ، أقول عندما يأتي شخص الى السلطة المهيمنة من أبناء العرب الساكنين في البلاد العربية المجـاورة فان هـذه السلطة لايسعها أن تتجرد عنه بل تضـع له من الخزينـة ما يفي بحاجته ، ويجبر عثرته •

عفوا لقد قلت عندما يأتي عربي يحمل تلك الصفات ، وكلمة (عندما يأتي) تكون فعلا مضارعا قابلا للحال والاستقبال ، ولذلك أحب أن أستدرك وأؤكد انه سبق أن أتى للدولة كثير من هـذا النوع ، ووضع لكل من أتى مرتبات شهرية تأتيهم وهم عند أهلهم، ولم يكن موضع الغرابة الشيء السابق القديم ولكن موضع الغرابة هو انني تأكدت انه في هذه السنوات الاخيرة وفي عام الستين ميلادية جاء شخص عربي من مواطني احدى الدول العربية المجاورة، وهذا الشخص حري به أن تنطبق عليه جميع الصفات العربية السالف ذكرها ، ولكنه خسر كل ما يملكه من ثروة بمحض صدفة القضاء والقدر ، فأصبح كما أشرت آنفا بقدر ما كان يجبر عثرة الكرام بحاجة الى من يجبر عثرته ، ولما علمت السلطة المهيمنة بأمره وضعت له مرتبا شهريا يصله وهو عند أهله في بلاده الخارجة عن حدود المملكة ، وأضيف مؤكدا بأن السلطة ذات الشأن لم يكن لها من عملها هذا أية غاية سياسية ما عدا الوفاء بالعادات والتقاليد العربية القديمة التي يصعب التخلي عنها بكل سهولة .

وبعد فاننا اذا انتهينا من كل هذه الواجبات السالفة الذكر والتي لاترى الحكومة مفرا من القيام بها ، اذا انتهينا من هـذه الاشياء الضرورية التي يعتبرها الاقدمون والتقاليد الموروثة العربية

والعرف السائد ضرورة الزامية لامحيص منها كما يعتبرها التقدميون من مخلفات الماضي التي يجب القضاء عليها ، أقول اذا انتهينا من ذلك نصطدم وجها لوجه بالمشكلة العويصة التي هي أعمق جذورا وأشد تعقيدا من المشاكل السالفة الذكر ، تلك هي مشكلة ماابتليت به القوة ذاتها من مقررات كانت جارية لها منذ عهد مؤسس هـذه الدولة ، وسواء أكانت هذه المقررات زائدة عن الحاجة أو ضمن نطاق الضرورة ، المقصود انها أجريت وأصبحت حقا موروثا لاهلها ، ومن غير السهل التنازل عن شيء منها .

كل هذه الامور كانت سائرة بطبيعتها ، ومضت الفترة الاولى والثانية ولم يحدث من التطور الفكري الشعبي ما يجعل أحدا من المواطنين يتصور أن هذه النفقات السالف ذكرها سوف تؤثر على ميزانية الدولة .

لا لم يبلغ الوعي القومي الى هذه المرحلة ولم تخطر له ببال ، وحتى السلطة المهيمنة لم يأتها أحد ينبهها الى هذه الناحية ، لافي الفترة الاولى ولا في الثانية ، ولا في بداية الفترة الاخيرة .

وفي العام الثالث من بداية فترة التطور توفي المغفور له الملك عبد العزيز ، وتولى من بعده نجله الاكبر الملك سعود الحـالي ، كان ذلك في بداية نمو التطور الفكري التقدمي ، وفي بقية ماتبقى

من شدة وعنفوان المحافظين القدامى ، وعندها رأى الملك الجديد انه اذا كان والده مؤسسا فلا بد أن يكون هو موطدا ، ولكـن المشكلة التي واجهها الموطد لاتقل صعوبة عما واجهها المؤسس، هذا اذا لم تكن أقسى وأشق •

فالمؤسس كانت أمامه جبهة واحدة هي جبهة الاقدمين فقط ، وكانت هذه الجبهة من السهل عليه تذليلها ، وخاصة بعدما تمكن من توحيد الجزيرة والقضاء على منافسيه ، بعد ذلك أصبح من السهل جدا مسايرة الاقدمين وكسب ثقتهم لانه لم يفاجأ بشيء من الافكار والعادات التي لايعرفها ولا يؤمن بها ، بل كان مؤمنا بما يؤمن به الاقدمون ، ومنفذا لما يطالبونه به ، كان مؤمنا بذلك عن عقيـدة، ولذلك كانت المشكلة التي واجهها الملك الموطد تختلف كثيرا عن المشكلة التي واجهها المؤسس ، فالموطد تبوأ أريكة الملك واستلم أزمة الامور في بداية يقظة التطور الفكري • ولا أقول في نهاية الفكر القديم ، ولا في عنفوانه، ولكن في المرحلة الوسط ، فأصبح الموطد يشعر بأنه بين جبهتين متناقضتين ، كل منهما يطالب بما يعتقده حقا من حقوقه ، والمشكلة انهما يختلفان كل الاختـلاف سـواء بالاهداف أو الغايات • ولما كان الموطد سريع الاجابة والتنفيذ ،فقد رأى أن يرضي الجهتين معا ، فسعى فورا بما جعل الاقدمين يرضون

عنه غاية الرضى حيث أمر بأن تضاعف مرتبات ومخصصات الفئة السالفة الذكر التي كانت تتقاضى من خزينة الدولة منذ تأسيسها هذه المقررات ، وفي نفس الوقت سعى الملك الموطد أيضا الى ارضاء التقدميين حيث ضاعف ميزانية كل وزارة من الوزارات ، وفتح باب التعليم على مصراعيه مجانا ، وخصص المرتبات لمن يدرس في الثانوي كتشجيع للعلم ، كما ضاعف مرتبات موظفي الدولة ، وأنشئت في عهده وزارات حديثة جعل لها ميزانية من جديد ، كما انشئت دور للايتام في عامة مدن المملكة ، وفي الوقت ذاته انشئت عدة مستشفيات حديثة ، كما أنشئت جامعتان . وضوعف عدد المجاهدين أو ما يسمى بالجيش الابيض ، كما ضوعفت ميزانية هيئة الامر بالمعروف ، وميزانية الاذاعة . وقام الموطد أيضا بعمران الحرمين المدني والملكي ، ولكن المشكلة التي بقيت بدون حل هي أن ميزانية الدولة ثقل كاهلها ، وناءت بعبئها ، حيث أصبح كل من القديم والجديد يريد أن يتقاضى حقه منها وافيا . والميزانية أعجز من أن تستطيع السير الى المدى البعيد ، على النهج الذي يقتضيه التطور الفكري الحديث ، وهنا تقف القوة المهيمنة موقفها الحرج من جديد ، فالتطور الفكري يرى أن ما ينفق في سبيل القديم انما هو على حساب الجديد ، والقديم يرى أن هذا الجديد

يحاول أن ينزع منه شيئا من حقوقه التي يملكها منذ وضع أول حجر في تأسيس هذه الدولة .

ونقف عند هذا الحد ، تاركين للزمان حكمه الفصل وكلمته النهائية .

هذا وقد كان بودي أن أجيب القارىء على ما وعدته من بيان السبب الذي جعل الدولة لم تقم بانشاء مصانع حديثة ، كنت أود أن أجيب على ذلك جوابا مفصلا ، ولكني أختصر فأقول : أعان الله القوة المهيمنة على ما تعانيه من الصراع المرير بين مطالب القديم الذي لايعلم ، بل يريد ان لايعلم ، وبين مطالب الجديد الذي لايرحم ، ولو شاء أن يرحم فان الزمان لايرحم، فان استطاعت القوة المهيمنة أن تساير الجديد بقدر الامكان وتقنع القديم بصورة تجعله يتنازل بها عن الاشياء التي لايكلفه التخلي عنها شيئا يضر به، ان استطاعت هذه القوة أن تضطلع بهذه المهمة تدريجيا ، فانه بالامكان أن تنشأ المصانع ، وتزدهر البلاد ازدهارا يتجاوب والتطور الفكري الحديث كل التجاوب .



التوفيق بين الجديد والقديم

عندما أنهيت كتابة الفصل الخاص بالصراع بين الجبهتين ، بعد ذلك شعرت بحافز من ضميري يدفعني بعنف وشدة بان لا أقصر همتي على نقل الامر الواقع أو الماضي كمؤرخ ليس الا ، بل ان يكون لي من غيرتي على تاريخ بلادي القديم وحاضرها ومستقبلها ما يجعلني أتمنى أن تكون جزيرة العرب الاصيلة التي كانت مصدر الاشعاع الفكري الذي أضاء على الانسانية أجمع هي صاحبة الزعامة لافي الشرق العربي فقط بل وفي العالم الاسلامي والانساني ، لان المؤهلات الموجودة فيها ومقومات القيادة المتوفرة في تاريخها القديم والحاضر لم تكن موجودة في أي قطر كان ، لافي العالم العربي فحسب بل ولا في أية أمة من الامم • وتلك ظاهرة أستطيع أن اثبتها بالادلة المنطقية التي لاتقبل الجدل متحديا

بها أي معارض يحاول أن يفند رأيي فيما اذا قلت : هات لي في طول الدنيا وعرضها أمةتوفر لها من مقومات القيادة ما لواستثمرت على حقها لاصبحت خير أمة أخرجت للناس ؟

هات لي أمة متحدة بعقائدها الروحية ، الاصول منها والفروع، ومتحدة بقبلتها ، ومتحدة بدستورها ، ومتحدة بلغتها ، ومتحدة بدمها ، ومتحدة بعاداتها وتقاليدها الشعبية ، ومتحدة حتى بلباسها القومي ، ومتحدة بالتالي بقيادتها بصورة جعلت المواطنين مذعنين كل الاذعان لاوامر قائدهم الاعلى بدون قيد ولا شرط ، فان غضب على أية قوة بالدنيا غضبوا لغضبه بدون أن يسأله أي مواطن منهم لماذا غضب ؟..

هات أمة بعصرنا الحديث كملت بها مقومات الزعامة ومؤهلاتها كهذه الأمة ؟.. وعندما أذكر هذه المعاني المتوفرة في كيان شعب الجزيرة وأذكر تاريخها القديم مركز الانطلاق الفكري الذي صقل الفكر البشري من عبادة الاصنام أنى كان نوعها .. عندما أذكر ذلك وأذكر ما تعانيه البلاد من الصراع الناشيء بين القديم والجديد، أجد ضميري ــ كما أشرت آنفا ــ يدفعني بعنف شديد نحو رغبتي وأمنيتي بأن تسترد جزيرتنا العربية مكانتها التاريخية كركيزة أساسية لقيادة العالم العربي . الا أنني في نفس الوقت أجد أن هذا الصراع

القائم بين الجديد والقديم من أهم العوامل التي تجر البـلاد الى الخلف ولا يمكن أن تسير البلاد قدما الى الامام مالم يتفاهـم القديم والجديد ، فيسيرا جنبا لجنب بـروح صافية وقلب طيب سليم ونية حسنة وعزيمة صادقـة ، أما اذا تركا يصطرعـان فان اصطراعهما هذا لن يكون الا على حساب الوطن بكامله ، هذا في حالة كون الحرب الباردة بينهما سجالا . اما اذا انتقل النزاع من الحرب الباردة الى الاصطدام بين الشقيقين ، لاسمح الله ، فمعناه أيضا مصيبة عظمى وكارثة كبيرة على الوطن ، ذلك بانه اذا انتصر الشيخ القديم مثلا على الفتى الحديث وقضى على نموه ، وأهاب بحيويته وحطم شعلة طموحه وقتل عنفوان فتوته ، وأطاح بهمـة شبابه .. فهذا يعني ان البلاد عادت الى الوراء عشرات السنين . وهذا يعني أيضا ان البلاد سوف تكون فريسة لقوة أخرى خارجة عن قوة أبنائها لان القديم بهذا العصر بالذات لايستطيع أن يعيش بمفرده فيما اذا ظل وحده في الميدان ، كما كان يعيش من قبل عندما كان منزويا عن اتصاله بالعالم الخارجي ، فتكون النتيجة الحتمية انه بقدر ما يخيل اليه أنه نجا من شر الجديد الذي هو من أبنائه يكون وقع في شر جديد أعظم خطرا وأسوأ مضرة مـن أبنائه ، هكذا تكون الحالة بالنسبة للقديم فيما اذا تم له النصر ، أما اذا

انتصر الجديد وأباد القديم نهائيا ، فمعناه أيضا اننا قضينا على حنكة الشيوخ وتجربتهم ، وقضينا بالتالي على الاحتفاظ ببعض ما تبقى من حسنات تقاليدنا وعقائدنا العربية والروحية .

اذن فأين الحل وما العمل ؟.. أيترك الامر على ما هو عليه من الحرب الباردة وننسى أو نتناسى بل نتجاهل الحقيقة ونخادع أنفسنا ونمثل الدور الذي تقوم به النعامة ، ونصبر حتى تنتقل المعركة من الحرب الباردة الى حرب السلاح فيقع المحذور الذي ألمحت الى نتائجه الخطيرة في حالة انتصار أحد الجانبين ؟.. أم الأجدر بنا أن يستدرك الامر ويتفادى الخطر قبل وقوعه ؟.. وان يسعى بالتوفيق بين وجهات النظر لدى الجانبين ؟ ومما لاشك فيه هو أن السعي بين الجانبين بالاصلاح والتوفيق أسلم عاقبة للجميع وأوفر فائدة . ولكن المشكلة العويصة تكون عند اختيار الوسيط الذي يتولى الاضطلاع بمثل هذه المهمة الخطيرة ، وهذا الوسيط لابد ان يكون من أحد الجانبين ، لان البعيد عن البلاد لايفكر بشيء من ذلك اذ هو لايهمه الامر كما يهم أبناءها ، ومادام ان الوسيط لابد أن يكون من أبناء الوطن وحيث ان المواطنين كما أشرت لايخلو الامر من أن يكونوا فريقي القدامى والتقدميين.. ومن هنا تأتي المشكلة من حيث اختيار الوسيط فان كان من التقدميين

فانه من غير اليسير أن يسعى بدور يرضى عنه الاقدمون • وان كان من الجانب الثاني فانه من مسلمات الامور الا يقوم بمساع تتضارب ومصلحته الخاصة ، اللهم الا اذا كان لديه من الانصاف والعدل وبعد النظر والاخلاص لوطنه ما يجعله يتنازل عن شيء من مصلحته الخاصة تجاه المصلحة العامة ، وهنا أود أن الفت نظر القارىء مستدركا هذه الجملة بالاشارة اليهـا بما يلي فأقــول : « عندما أشير الى الرغبة بوجود وسيط يتنازل عن بعض مصلحته الخاصة تجاه المصلحة العامة ولا أقول يضحي بمنفعته الخاصة من أجل المصلحة العامة » •

عندما أقول ذلك لانني أعلم بأنه مهما بلغ المرء من الاخلاص لوطنه ولأمته فانه من المستحيل أن يضحي بكل ما يملك ويتنازل عنه دفعة واحدة ليموت جوعا وتحيا أمته •• ان هذه الاسطورة يرددها الاذكياء السياسيون قولا ، أما ان يطبقها أحد منهم فعلا فهذا شيء مستحيل ونادر الوقوع ، فان حدث فانه لايحدث الا من انسان مسرف في سلامة طويته ، وان شئت فقل سذاجته ، أو من انسان يقع عليه المثل القائل : « مرغم أخوك لابطل » •

اما وجود من يتنازل عن بعض مصالحه الخاصة تجاه مصلحة وطنه العامة ، فاني أعتقد ان وجود هذا الشيء من المواطنين ليس

معدوما . ومن هنا نكون وجدنا الوسيط الذي يستطيع أن يمثل هذا الدور ويقوم به بكل أمانة ، فالوسيط على هذا الاساس يجب أن يكون من الاقدمين .. وكأني بالقارىء يتساءل عن كنه الحل الوسط الذي يقوم به الوسيط .. وعن الاعمال التي اذا عرضها على الاقدمين لاتؤثر كثيرا على ميزانيتهم ، وهي في نفس الوقت تجعل التقدميين لاينظرون الى اخوانهم الاقدمين نظرة نفور واشمئزاز ، والعمل الذي يقوم به هذا الوسيط في بداية الامر : أولا أن يتفاهم مع التقدميين بأن يخففوا من حدة حماسهم وشدة سخطهم على كل ما هو قديم ، وان يقنعهم بأنه مهما قيل عن الاقدمين من هنات وتصرفات غير موفقة فانها كانت نتيجة عدم ادراكهم لتطور الزمان ، لا لعقوق منهم لوطنهم كما يتصور ذلك متطرفو الجيل الحديث .. أجل مهما قيل عن هؤلاء من مثل هذه الاشياء فان للاقدمين الفضل في بذرهم نواة هذه الوحدة الوطنية ، وفي صيانتهم لكيانها وحرصهم على سلامة استقلالها ، في الحين الذي كانت جميع الأقطار العربية ترزح تحت وطأة الاستعمار التركي سابقا ، ثم الاستعمار الغربي مؤخرا ، ولم يبق قطر من بلاد العرب لم تدنسه أقدام المستعمرين سوى هذه الجزيرة .

اذن لقد كان للاقدمين من فضل الاسبقية ما يجعل هذا الجيل الناشيء التقدمي يحني رأسه اجلالا لماضي الاقدمين التليد ، لانهم ولا شك هم بناة هذه الوحدةومؤسسوها ، وتقديسا لهذه الفضيلة الوطنية يجب أن يغض النظر عما يبدر منهم من أعمال ناتجة عن عدم علمهم بمقتضيات العصر الحديث الذي يتنافى ومفهومهم كل المنافاة .

ولما كان التقدميون لايقنعون غالبا الا بالمنطق ، فان من أوجب الواجبات على هذا الوسيط أن يقنع المتطرفين من هؤلاءالتقدميين، أو يقنع بالاحرى الذي لايعرف على الوجه الصحيح شيئا من تاريخ الادب العربي والهدي المحمدي الاسلامي اللذين فيهما من النصوص والادلة ما يثبت بأن صاحب الاسبقية بالمروءةوالجهاد يصح بالعرف العربي وفي الدستور الاسلامي التجاوز عن عثرته والتسامح عن خطيئاته ، وهذا (حسان بن ثابت يقول) :

نسود ذا المال القليل اذا بدت

مروءته فينا وان كان معدما

ومعلوم بأن هذا البيت من قصيدة حسان الميمية التي أنشدها في سوق عكاظ عندما كان جاهليا ، وواضح معنى البيت بأن صاحب الأسبقية بالمروءة يرى العرف العربي أن يسوءدبقبيلتهوان

كان معدما من المال ، أي أن أسبقيته بمروءته تكفي أن تكـون شافعة له بالسيادة .. هذا منطق العرف العربي قبل الاسلام .. ثم جاء الاسلام وأيد هذا المبدأ تأييدا أشد روعة من تأييد العرب في الجاهلية له ، وذلك في حادثة الصحابي حاطب ابن بلتعة الذي كاتب المشركين في مكة وأشعرهم بأسرار المسلمين الحربية .. ثم بعد ذلك انكشف أمر حاطب عند النبي محمد واعترف بجريمته ، فظن الحاضرون من الصحابة أن لن تكون عقوبة حاطب الا ضرب عنقه .. ولكن محمداً كان أسمى خلقاً من ذلك حيث قال عليـه السلام ما معناه لاصحابه : (ألا تعلمون أن حاطباً وان وقع منه ما وقع ولكنه من أهل بدر ، وأن الله قد عفا عن ذنوب أهل بدر ماتقدم وما تأخر) .

ومعلوم ان السر بالتجاوز عن عثرة من حضر بدر يعود على ان معركة بدر كانت هي المعركة البكر الفاصلة في التاريخ الاسلامي وأهلها يعتبرون هم بناة الحجر الاساسي لوحـدة الامبراطورية الاسلامية .

وهنا أعيد الكرة مؤكدا لهذا الوسيط بأن عليـه أن يقنـع التقدميين بمثل هذه الحجج التاريخية مؤكدا بأنه ما دام أن محمدا تجاوز عن خطيئة حاطب بن بلتعة لانه من النفر الذين جاهـدوا

بجانبه ببدر كما ان له موقفا بطوليا في معركة أحد .. فمن أجل ذلك عفا عنه وتجاوز عن غلطته الكبيرة التي تعتبر خيانة في العرف العسكري ويكون عقاب صاحبها الموت .. أفلا يصح والحالةهذه أن يخفف هؤلاء التقدميون من عنفوان تحمسهم ولومهم لآبائهم الاقدمين ما دام أنهم ولا شك أصحاب الفضل الاسبق في تأسيس هذه الوحدة الشامخة المنيعة الجانب ؟ وما دام أنهم لم يقوموا بعمل الا بما يعتقدون عن حسن قصد بأنه طيب ، وذلك لعدم علمهم بما يسير عليه العصر الحديث من تطور عنيف مخالف لعقليتهم القديمة وبعيد عما نشأوا وشاخوا عليه بعد المشرق عن المغرب .

هكذا يجب على هذا الوسيط أن يقنع التقدميين بمثل هذه العبارات وبمثل هذا الاسلوب .. ثم اذا أنهى مهمته مع الاقدمين ووصل الى الحد الذي مكنه من أن يقنعهم أو يخفف من شدة تهورهم ... بعد ذلك يمضي ليقنع المتزمتين من الاقدمين فينصحهم ويقدم كل ما لديه من الحجج البليغة والمنطق القوي مؤكدا لهم بأن الزمان دائما بجانب الابن الفتي الناشيء أكثر مما هو بجانب الوالد الكهل ، وانه بقدر ما ينحدر الوالد الى أسفل عتبة من السلم من دور الكهولة الى المرحلة الثالثة ، وهي دور الشيخوخة ، ثم الى أرذل العمر ، وتلك هي المرحلة النهائية التي اذا أوشك المرء

أن يصل اليها تمنى أن يلحق بالرفيق الاعلى، أجل عليه أن يقنعهم بأنه
بقدر ماينحدر الوالد الى هذه المرحلة بقدرماينمو الابن من المهد، ثم
ينتقل الى الطفولة ، ثم يرتفع الى المراهقة ، ثم ينمو الى الفتوة ،
ثم يبلغ القمة نحو النضج الكامل عقلا وجسما ، واذا تجاوز الفتى
سن المراهقة ودخل سن الفتوة والنضج فان ذلك الشيخ الهرم
أصبح تحت رحمة الفتى ، وغالبا ما نجد الناشيء لايغيب عن ذهنه
كل ماكان يعامله به ولده أيام طفولته من حسنات وسيئات ..
ولذلك يجب على هذا الوسيط أن يقنع هؤلاء الشيوخ القدامى
بأن لا يعاملوا أبناءهم أية معاملة تمس شعورهم ، وأن يقنعهم بأن
ما كان يقدمه هؤلاء الشيوخ لأبنائهم بالامس من حسنات حسب
اعتقاد الأقدمين القديم فانه بحسب مفهوم التقدميين يعتبر حقا من
حقوقهم الطبيعية . كما يقنع هؤلاء الاقدمين بأنهم عندما يتنازلون
اليوم عن بعض الشيء الزائد عن حاجاتهم الضرورية فان هذه
العملية سوف يقدرها لهم ابناؤهم التقدميون فيما اذا جاءت عن
طيب نفس ومحض ارادة ، وسوف يكون لهذا التقدير أثره في
نفسية القدامى ، وذلك في الحين الذي يصلون به الى سن الهرم
ويصبحون تحت رحمة هؤلاء التقدميين .. أما اذا أصر الآباء
الاقدمون ومضوا في سبيلهم بدون ان يلاحظوا شعور أبنائهم

وبدون أن يتنازلوا لابنائهم برغبة منهم وطيب نفس عـن بعض الشيء الزائد ، فان الابناء آنئذ لايلبثون أن يتضاعف حقدهم ، بل هم يحسبون الايام بالثواني التي تمر دائما بصالحهم بقدر ما ينحدر بآبائهم القدامى الى أرذل العمر ، فعندها يأخذ الابناء حقهم من آبائهم بقوة لاتكلفهم أدنى تعب أو نصب . هذا ومما لاشك فيه بأن الوسيط عندما يقوم بهذه الجهود المعاكسة بين الجانبين فان كلا منهما سيخفف من حدته ويهون من شدته ، والذي يهمنا الآن هو ان يتنازل الشيخ القديم بمحض ارادته عـن جزء يسير مـن الشيء الزائد عن لوازمه الضرورية . وعلى هذا الوسيط بعد التمكن من اقناع القدامى ، عليه أن يقترح عليهم أن يتنازلوا عما يصل اليهم من خزينة الدولة المشتركة عن قدر لايقل عن عشـرين بالمائة شريطة أن يكون هذا التنازل من الاعلى الى الادنى وهذا المبلغ يوحد وينشأ به مصنع أو أي عمل مضمون الفائدة للوطن . وينبغي أن يطلق على هذا المشروع اسم مرتبط بهؤلاء القـدامى « كمؤسسة الرعيل الاول مثلا » أو ما أشبه ذلـك . ويجب أن يكون للعاجز في المستقبل من هؤلاء القدامى أو لابنائهم المقلين القدر الذي يفي بحاجتهم ، كما ينبغي أن يستمر التنازل كل عام عن نسبة معينة لاضرر فيها ولا اضرار . وأعتقد أن الاقدمـين متى

وثقوا بأن هذا المشروع سيكون باسمهم وانه يكون ضمانة العاجز والمقل منهم بحياته ، ولليتيم القاصر من ابنائهم بعد مماتهم ، فان المنصف العادل منهم لن يكون لديه أي تردد عن قبول اقتراح الوسيط وتنفيذ فكرته .

هذا ويروق لي أن أؤكد للقارىء باني عندما شرعت بالكتابة أي « التوفيق بين القديم والجديد » ، ظللت فترة وأنا في حيرة من الامر أقلب القلم بيدي، ويدفعني حافز ضميري الى الامام ، وتجرني رواسب الماضي الى الخلف . ولا عجب بأن أقف موقف الحيرة بين الاقدام والاحجام وأنا الذي تأثرت الى أبعدحد بالقديم كما أنني أجد تفكيري سائرا بلا قيد ولا شرط نحو الحديث .

هذا من الناحية الفكرية ، أما من الناحيــة الاقتصادية فــان مصلحتي الخاصة مرتبطة بالقديم أكثر من ارتباطها بالجديد . هذه حقيقة أقولها بصراحة .. ولهذا رأيتني حيران بــين الجبهتين .. وأزيد القارىء وضوحا بأنه عندما يتم تنفيذ اقتراح الوسيط الذي أشرت اليه ، أي بأن يتنازل أصحاب الامتيازات من القدماء عــن عشرين بالمائة مما يدخل عليهم من مالية الدولة ، وعنــدما يستمر التنازل سنويا عن نسبة معينة ، فانه سوف ينالني نقص في ميزانيتي الخاصة ، الا انه النقص الذي لايؤثر على وضعي الاقتصادي الا بعد

ما أحال على التقاعد ، ذلك بأنني وان لم أكن من الاقدمين بناة هذه الدولة ، بل ولا من التابعين ، ولكنه على أي شكل كان فانه عندما ينفذ مشروع الوسيط بصورة عادلة شاملة للكبير قبل الصغير فانه سوف ينالني تقص في ميزانيتي بصورة عامة •

وما دام الأمر لايؤثر التأثير الكلي في ميزانيتي ، ومادام ان هذا العمل يوفق بين وجهات نظر المتصارعين من المواطنين الاقدمين والتقدميين ، فاني أجد ضميري مطمئنا ، ونفسي هادئة راضية بأي عمل يعود نفعه الشامل على الوطن ، ولا سيما اذا كان هذا العمل لايضر بمصلحتي الخاصة الضرر الحاسم • واذا كان هذا العمل أيضا يصل بنا الى مساواة عادلة بين من يعيش الى أبعد حد من حدود الترف ومن يعيش الى أقصى حد من حدود البؤس ، وحينما تكون العدالة مشاعة بين المواطنين فلا يكون بعد ذلك تعال من الاول على أخيه الادنى كما لايكون من الادنى حقد على الاعلى •



السر الرئيسي
الذي مكن الملك عبد العزيز آل سعود
من توحيد الجزيرة وسيادتها

قد يكون هذا الموضوع الذي تتحدث عنه خارجا عن نطاق البحث الخاص في التطور الفكري ، ولكنه جاء عارضا في المقدمة، وقد قطعت وعدا بأني سوف أتحدث فيه عن السر الذي مكن الملك الراحل من السيادة على الجزيرة وتوحيدها ، ولذا أخوض هذا البحث وفاء بوعدي من ناحية ، ومن ناحية ثانية لكي أوضح السر الذي يجهله الكثيرون ، ورغبتي في أن يتخذ أي قائد من قادة العرب الذي تسنح له الفرصة لقيادة الامة العربية وتوحيدها قدوة من سياسة ذلك القائد العربي الذي كان السر في نجاحه معرفته الراسخة بالنقط الحساسة التي اذا أوتي العربي من قبلها سلم زمامه لقائده بكل سهولة ، ونسي كل

ما بينه وبين قائده من عداوة واحقاد .

وقبل أن أبدأ الكشف عن ذلك السر ، أود أن أشير الى السبب الذي جعل كثيرا من المؤرخين يغفلون الكتابة عن الصفة البارزة التي طبعت عليها نفس عبد العزيز ، تلك الصفة التي كان يجب أن يضعها كل كاتب في مقدمة كتابته التاريخية ، لانها وحدها ، بعدالله، هي التي مكنته من توحيد عرب الجزيرة ، وأعتقد أن الامر الذي جعل اولئك المؤرخين يقتصرون في كتاباتهم على فتوحاته وانتصاراته وغزواته ، ولم يكتب واحد منهم عن كنه الفلسفة الحقيقيـة التي كانت عاملا أساسيا في بروز شخصيته كموحد لشمل شعب مضت عليه مئات السنين والنعرات القبلية والتحيز الاقليمي والتجـزئة العنصرية طاغية على مشاعره ومهيمنة على كيانه ، حقا لم أر أحدا كتب شيئا عن ذلك اللهم الا ما هو من قبيل سردا لحوادث ليس الا، والمقصود من علم التاريخ هو كما أشار اليه الزعيم الالماني هتلر بكتابه كفاحي ص ٢٢٣ حيث قال : (المقصود من تعلم التاريخ ليس مكاتته الماضية وانما المقصود استخراج الدروس والعبر من هـذا الماضي) . ومن هنا أود أن أؤكد أن السر في رأيي في عدم وجود من كتب عن هذه الناحية الهامة في نجاح عبد العزيز يعود الى ان الكتاب الذين كتبوا عنه لم يعاصروه منذ بداية أمره ، ولم يعرفوه

الا بعد ما تمت له سيادة الجزيرة ، هذه ناحية والناحية الثانية هي أنهم حتى لو قدرنا انهم عاصروه منذ البداية فانهم لايستطيعون أن يلموا بجميع جوانب شخصيته ما لم يكونوا من نفس البيئة ، واقفين حق الوقوف على عادات وتقاليد البلاد كنفر من صميم أبناء الجزيرة ، وواقفين أيضا على معاني الادب الشعبي الذي يعبر أبلغ تعبير عن حياة أبناء الجزيرة التقليدية ، ويوضح ما لهم وما عليهم وما وصف به الشعراء الشعبيون المرحوم عبد العزيز من النعوت المتباينة (١) ، ما كان له أو عليه ، والاهم من هذا كله هو أن لا يكون الكاتب من أبناء الجزيرة الذين عاصروا عبد العزيز كموالين ومؤيدين له فحسب ، بل من الذين عاصروه بعد ما قضوا فترة من عمرهم وهم خصوم معارضون ومن أشد الأعداء الالداء له ، ثم استولى عليهم بل استولى على أفئدتهم فأصبحوا من المخلصين له ومن أعظم المحبين لشخصه .

ان من يجمع هذه الصفات أو بعضها وخاصة الاخيرة منها أو من ينقل عن الرواة الثقاة المنصفين الذين اجتمعت بهم هذه الصفات

---

(١) ربما يقال ولماذا لم يكتب عنه الرجال الشعبيون الذين عاصروه ؟ فالجواب على ذلك هو انه بقدر ما ينقص الكتاب الذين كتبوا عن عبد العزيز معرفة الادب الشعبي الذي يؤهلهم للكتابة عنه بكل سهولة بقدر ما ينقص الذين عاصروه معرفة الكتابة بالعربية الفصحى . وعلى هذا الاساس ضاع تاريخ الملك الراحل بل ضاع الكثير من تاريخ الجزيرة بين جهل هؤلاء وتطفل أولئك .

المشار اليها ، فهو وحده الكاتب الذي يستطيـع أن يكتب وأن يوضح أنبل صفة عربية خولت عبد العزيز آل سعود قيادة عـرب الجزيرة وتوحيدهم .

هذا واني لا أريد أن أسرد الحوادث التاريخية ، وآتي بذكر الاسباب والمسببات التي أبرزت شخصية عبد العزيز ، لا أريد أن أذكر شيئا من ذلك لان ذلك يحتاج الى مجلد خاص أو مجلدات، ولانه بالتالي يعود بنا الى نفس الاسلوب الذي سار عليه من كـان قبلنا من المؤرخين ، ولذلـك أود أن أذكر أهـم الاسباب وأبرز الصفات التي كانت عاملا أساسيا لسيطرته على أرجـاء الجزيرة بكاملها .

وهنا أتساءل : ما عسى أن تكون هذه الصفة ؟ أهي الشجاعة ؟ لعلها هي ، لانه كثيرا ما كان عندما يدعو الداعي وتضطره الحال يغامر بنفسه مغامرة المستهتر بالحياة ، ولكنها لم تكن الشجاعة هي الصفة البارزة فيه رغم وفرتها بشخصيته ، لانه صارع شجعانا ثم صرعهم ، ولكننا لانستطيع أن نحكم بأن أولئك الابطال الذين صرعهم وقضى عليهم في ميدان الحروب والسياسة كانوا أقل منه شجاعة ، أو كان هو أوفر منهم بطولة ..

اذن .. أتكون الصفة البارزة هي الكرم ؟ فهذه الصفة أيضا

وان كانت مطبوعة بدمه ولحمه ولكننا لانستطيع أن نطلق الحكم بكل سهولة بأن الكرم كان وحده هو الذي بلـغ به ما بلغ مـن الهيمنة على الجزيرة لاننا نعرف انه خرج من الكويت وهو فقـير فقرا مدقعا ، وبماذا يكرم الفقير المعدم ؟ هذه ناحية والناحية الاخرى هي أننا نعرف أيضا بأنه تصدى لمحاربة أناس كانوا يهبون الذهب الرنان بالكمية لا بالعدد ، ومع ذلك هزمهم من أقدس الاماكن .. فماذا تقول ياترى ؟ أتقول أن السر لسيادته للجزيرة يعود بأن لديه قبيلة كثيرة بعددها وقوية بعتادها ومنيعة الجانب بسطوتها ؟؟

أتقول ذلك والتاريخ يفيـد أيضا بأن قبيلته التي ينتمي اليها بالرغم من وفرة تلك الصفات بهـا ولكنهـا لم تحـارب بجانبه يوما مـن الدهر ، كما يفيـد التاريـخ أيضا انه ما من قبيـلة من قبائل الجزيرة الا حـاربته ، اللهم الا ما كان نادرا ، والنادر لاحكم له ، هذا اذا وجد النادر ، وقد تختلف هذه القبائل بحروبها له ، لارحمة به ولا تسامحا منها ولا عفة عن حربها له ، ولكن الاختلاف يكون بقدر ضعف هذه القبيلة وقوة بأس الاخرى وشدة ضراوتها . كما انك قل أن تجد بلدة من بلدان المملكة الا حاربته ، بما في ذلك بلدته الرياض فان رجالها حاربوه بجانب عدوه ابن رشيد وطردوه في محاولته الاولى لاحتلال الرياض ، ولم يتركوا مقاومتـه في

هجومه الثاني على سرية ابن رشيد الا نكاية بعبد العزيز بن رشيد، الذي عاملهم بواسطة مندوبه سالم السبهان معاملة سيئة لايمكن أن يطيقها العربي الأبي ، فعندها قلبوا للرشيدي ظهر المجن ، وصافحوا عبد العزيز بن سعود . وما دام ان بطل الجزيرة لم يبن زعامته على واحدة من هذه الامور التي أشرنا اليها فلا بد والحالة هذه أن يكون هناك سر خطير أعظم وأجل مما ذكرنا .

ولكن ما هو هذا السر العظيم الخارج عن هذه المؤهلات للزعامة ؟.. أجل انه السر الجليل ذو الاهمية الكبرى الذي أدرك محمد عليه السلام عظمة مفعوله وهيمنته على شعور العرب وعواطفهم فقال :

« انكم لاتملكون الناس بأموالكم ، ولكن تملكونهم بأخلاقكم »

وكل من يظن ان عبد العزيز آل سعود ملك الجزيرة بالسيف ، فانه يجهل تاريخ البلاد جهلا عميقا ، فالسيف لم يكن وحده العامل الاول بانتصارات عبد العزيز في توطيد حكمه ، وكل من يظن انه ملكها بالمال فانه جاهل أيضا ، وكل من تتبع سياسة الرجل بدقة وجد أن برنامجه الذي سار عليه في توطيد زعامته هو انه عندما ينتصر على هذه القبيلة ويحتل تلك البلاد فانه ينظر لهذا الانتصار المادي نظرة ثانوية بالنسبة للانتصار المعنوي .

ولذلك نجده لايهتم باستيلائه على البلدة التي يحتلها بقدر ما يهتم بأن يستولي على قلوب أهلها استيلاء كاملا لاينافسه به زعيم آخر.

هكذا كانت فلسفة حكم عبد العزيز آل سعود التي سار عليها والتي تعبر بوضوح بأنه وان كان بغزواته فتح البلاد وأسر الرجال، ولكنه كان بعدما يتم له النصر المادي على خصومه يسخر جميع قواه الى فتح قلوب الرجال كما فتح بلادهم وان يأسر نفوس أعدائه كما أسر رقابهم.

وبعد، فاني عندما أذكر هذه الفلسفة لحكم الملك عبد العزيز وأؤكد بأنه يحرص بالدرجة الاولى على أن يستولي على قلوب أعدائه ما استطاع أشد من حرصه على أن يستولي على حكمهم وسيادتهم، عندما أذكر ذلك لابد لي من أن آتي بأدلة وشواهد منطقية، والا كان الحديث بهذا الصدد ضربا من الوهم والظنون.

من المعروف أن أكبر المنافسين لعبد العزيز آل سعود وأقواهم بأسا وأعنفهم قبيلة هم آل الرشيد، ولكي يعرف القارىء ماهو الاسلوب الذي يستطيع الملك عبد العزيز أن يملك به قلوب أعدائه قبل أن يملك رقابهم، لكي يعرف ذلك أحب أن أورد القصة التي رويتها عن المرحوم الامير عبد الله بن متعب بن رشيد المتوفى عام ١٣٦٧هـ الموافق ١٩٤٢، ومن أجل أن تكون للقصة قيمتها التاريخية والواقعية أود

أن أوضح للقارىء الذي قد لايعرف شيئا عن مكانة بطل القصة ومنزلته في تاريخ أحداث الجزيرة القديم ، فالراوي كان أمير حائل عاصمة المنطقة الشمالية من الجزيرة وابن اميرهـا متعب ، وحفيد أميرها المرحوم عبد العزيز بن رشيد الفارس المشهورالذي كان أعنف وأقوى من أيخصم نازله المرحوم عبد العزيز بن سعود، والذي كان مصرعه على يده ، والذي يعتبر ابن سعود ان مصرعه لابن رشيد فاتحة عهد جديد في انتصاراته الاولى ، فيكون بطل الرواية هو الشخص الذي قتل عبد العزيز آل سعود جده ، وحطم زعامته وزعامة أسرته وأسر رقبته ، (ولكنه في الوقت ذاته أسر قلبه وملك نفسه) وأكبر دليل على ذلك هو اني سمعت هذا الشخص ذات ليلة يقول : (أتمنى أن الأجل يمنح كما يمنح المال)، ثم واصل حديثه فقال لو ان الاجل يمنح لمنحت من أجلي قسطا لعبد العزيز ابن سعود .. لقد دهشت ساعتها وكيف لاتأخذني الدهشة عندما أسمع هذا التصريح من شخص وضعه كوضع ابن رشيد ، وزادني دهشة هو اني أولا أعرف عبد الله جيدا بأنه صريح ولا يمكن أن يتحدث أو ينطق الا بما يعتقد ويؤمن به .

ثانيا : هو انه صرح بهذه الجملة في الحين الذي أعتقد جازما بأنه لم يكن بين السامعين للجملة التي قالها أي شخص يحتمل

أن ينقل مثل هذه الكلمة لمصدرها قطعيا .

ولقد خطر في ذهني حينذاك ان الملك عبد العزيز واهب للرشيدي مبلغا مغريا من المال ، ولكن هذا الخاطر لم يدم طويلا في مخيلتي، والسبب هو اني أعرف عبد الله كما يعرفه الكثير غيري ، بأنه امرؤ لاتؤثر الاشياء المادية على كيانه كتأثير الاشياء المعنوية ، وذلك انه حتى ولو وهبه الملك مالا فانه بدوره هو يهب ما يأتيه في حينه ولا يدخر درهم اليوم للغد ، اذن فالقضية التي جعلت عبد العزيز يجعل عدوه وابن عدوه وحفيد عدوه الخ.. يذعن له بالولاء والمحبة والاخلاص الى الحد الذي يجعله يتمنى أن يهبه قسما من أجله أي معناه يفديه بنفسه ... ان السر في ذلك أعظم من أن يكون ماديا .

نعم انه معنوي حقا . ولقد اتضح لي شيء من هذا السر فيما بعد وبمحض المصادفة .

وفي مناسبة أخرى كنت جالسا في منزل صاحب الرواية ، أعني المرحوم عبد الله آل رشيد ، واذا به يروي معاملة عامله بها الملك عبد العزيز ، وهذه المعاملة قد لاتكون ذات أهمية من حيث مظهرها الشكلي ، ولكن من حيث تأثيرها الواقعي على نفسية العربي من هذه الناحية تعتبر أروع التعبير عن كنه السر الحقيقي

الذي جعل هذا العبقري الموهوب يستطيع أن يأسر قلوب اعدائه كما أسر رقابهم ، ويستولي على مقاليد نفوسهم كما استولى على سيادتهم . والقصة كما رواها بطلها تتلخص كما يلي :

يقول الراوي : في عام ١٣٥٥هـ الموافق ١٩٣٥م سافر بصحبة الملك عبد العزيز الى شمالي الجزيرة ، فشخص نحو حائل ، أي عاصمة أمارة صاحب الرواية سابقا ، فدخلها . ومن هنا يصف لي الراوي الشعور السيء الذي ألم به في بداية ذلك اليوم ، كما انه يصف كيف تبدل ذلك الشعور الحزين بشعور مرح وغبطةوسرور في نفس ذلك اليوم أيضا بل في نفس تلك الفترة .

يقول عبد الله : لقد ذهبت من بلدتي حائل في الفترة التيأذكر انني صاحب السيادة فيها ، وانما بعدما بقيت في الرياض مـدة طويلة انساني بها عبد العزيز آل سعود بمعاملته الطيبـة بلادي ، كما أنساني أمارتي وقبيلتي ، ولكني بعد أن عدت هذه المرة الى بلدتي ، ورأيت مآثر أهلي وقصر أمارتي مهدما ، بعد ذلك تذكرت مجد آبائي وخالجني شعور من البؤس والحزن ، واحتقرتحياتي ، بل وزهدت بها ، وتمنيت انني لم أخلق ، ودار في خلدي كثير من الخيـالات التي لايعلمهـا الا الله ، ويسترسل ابن رشيـد في حديثه فيقول : الا ان هذا الشعور الحزين ، وذلـك الاحساس المؤلم ، لم يدوما أكثر من دقائق معدودة ، وذلك انه سرعان مادخل

عليَّ الملك عبد العزيز بوجهه الباسم فقال : لاشك بأنك يا عبد الله ذهبت من بلادك وأنت صغير ، ولك الآن عنها خمسة عشر عاما ، وقد عدت اليها الآن رجلا كبيرا ، لذلك أود أن تذهب وتزور من تريد من أحبابك بها ومن أقربائك و .. الخ .. يقول عبد الله فأجبته قائلا : ان أهلي وابنائي ومن أحب كلهم تركتهم في الرياض ، ولم يكن لي « يا طويل العمر » في هذا البلد من أعرفه، لاني تركتها صغيرا كما هو معلوم لديكم ، ويستطرد عبدالله فيقول: ولكن عبد العزيز عندما رأى اصراري بعدم قبول الفكرة ذهب وألح علي بأن أذهب لاستحم بنفس الحمام المهيأ للملك . ويؤكد الراوي بأنه رفض قبول الاقتراح ولكن عبد العزيز هذه المرة أصر ولم يدع له فرصة للعذر حتى قبل ، ولم يعلم عبد الله ماذا وراء هذا الالحاح حتى خرج من الحمام واذا بجلالة الملك عبد العزيز يقف لعبد الله عند باب الحمام كخادم حمام يقدم بيده اليمنى المنشفة، وفي اليد الثانية بذلته الملكية الخاصة ، ثم بعد ذلك قدم له قارورة من دهن الورد الملكي كان معدا لاستعماله الخاص .

يؤكد لنا عبد الله بأنه بعد ما رأى هذه المعاملة من هذا الملك المسرف في كرم الخلق ، وفي معرفته لنفسية العرب ، تبدد كل ما في كيانه من الشعور السابق ، وآلى على نفسه حينذاك بأن يكون أبدا على أتم الاستعداد لفداء عبد العزيز بنفسه وأهله وذويه .

* * *

ولما كان السر الذي مكن عبد العزيز آل سعود مـــن سيادته للجزيرة وتوحيده لكلمة أبنائها هو معرفته لهذا الخلق ، فان من أوجب الواجبات على الزعماء العرب الذين أبرزتهم الاحداث، وجاءت بهم الملمات ، بل وعلى أي زعيم عربي سواء أكان مؤسسا أو موطدا عصاميا كان أو وراثيا ، على كل مـــن تتيح له الفرصة أو تسنح له الظروف بالزعامة العربية ، أن يجعل هذه السجية ، أي كرم الخلق والتسامح، دستورا لحمكه ، ونبراسا يهتدي به لتوطيد سيادته .

وبعد فقد وجه الي صديق من مثقفي العهد الحديث السؤال التالي : ألا تعتقد أن منطق الجيل الحديث يختلف كل الاختلاف عن منطق الجيل القديم الذي عاش بين ظهرانيه الملك عبد العزيز ؟ فقلت لاشك بذلك ، وانما أود أن توضح لي ما تعني من الاختلاف؟ فقال : أما كان الملك عبد العزيز عندما يقدم لأي مواطن شيئا من الاشياء المعنوية أو المادية فان هذا الشيء يعتبر حسنة منه ومعروفا من جلالته في منطق وتفكير ذلك الجيل ؟

قلت : بلى .. فقال : أما ترى الآن أن التطور الفكري الجديد بلغ بالجيل الحديث ما يجعله ينظر الى تلك الامور التي كان يؤمن بها سلفه بأنها معروف واحسان ، أصبح ينظر اليها بأنها حـــق من حقوقه الطبيعية ، وانه هو والملك فيما له عـــلاقة بخزينة الدولة

سواء في الحقوق الوطنية ؟.. قلت : هذا هو منطق جيل العصر الراهن ؟ قال : اذن ما بالك تطالب زعماء العصر الحديث في العالم العربي بأن يسيروا على النهج الذي سار عليه الملك عبد العزيز وهو لو عاش الى هذه الفترة لاضطرته الظروف الى احدى الحالتين : اما أن ينحني مرغما تجاه مقتضيات العصر الجديد ، ويسير وتطوره الفكري جنبا لجنب ، أو يذهب ضحية لتياره الجارف اذا ما عاكسه ؟..

قلت لصاحبي : ان ما تشير اليه شيء لا أقول انه لم يخطر لي ببال ، بل اني متيقظ له كل اليقظة ، ومدرك اياه أبلغ الادراك ، وقد كنت عازما على أن أتحدث عنه في نهاية هذا البحث بوضوح. اما وقد بادرتني بالسؤال عنه فاني مجيبك بما هو آت :

لقد كنت ولم أزل مؤمنا بأن التطور الحديث الذي يداعب خيال كل عربي ، سواء من أبناء هذه الجزيرة بصورة خاصة أو من أي قطر عربي بشكل عام ، يختلف كل الاختلاف عن تفكير الجيل القديم الذي عاصره الملك الراحل ، كما أني مؤمن أيضا بأن بعض الاشياء التي كان يقوم بها الملك عبد العزيز نحو رجال عصره والتي كان رجال ذلك العهد يعتبرونها كلها حسنات ، فان تفكير هذا الجيل لايستسيغها بل ولا يهضمها كحسنات ، ثم مضيت بالحديث

وصاحبي الى أن أكدت له قائلا : ولكن مهما تطور الفكر العربي بهذه السرعة فان الامور المعنوية لازالت تؤثر على كيانه وشعوره أكثر بكثير من تأثير الامور المادية ، ولذلك تجدني مضطرا الى القول عن عقيدة ودراسة راسخة بعادات العرب وتقاليدهم ، بأن السر الوحيد الذي لا زال عقبة كأداء في سبيل توحيد الامة العربية، تلك الامنية التي تتوق لها نفسية كل مواطن من أبناء العروبة البررة المخلصين ، ان السر في ذلك لا أقول انه الاستعمار الرأسمالي الغربي ، ولا الاستعمار الشيوعي الفكري ، لا أقول هذا ولا ذاك، وان كان هذان العاملان من أهم العوامل التي كانت ولم تزل تسعى لتفتيت الامة العربية وتشتيت شملها ، ولكن العامل الرئيسي في نظري هو اختلاف القادة أنفسهم ، ولا أقصد اختلافهم بالنوايا الحسنة أو السيئة ، ولكنهم مختلفون في أمور جذرية ، وحتى لو سلمنا جدلا بصلاح قصد كل منهم ، فانهم مختلفون ومتباينون كل التباين في سياستهم بما ينسجم و نفسية الشعب العربي، حيث تجد كلا منهم يسير بسياسة تكون على طرفي نقيض من الثاني بالنسبة لمعرفتي وادراك عقلية الشعوب العربية على مختلف نشأتها و نفسياتها واتجاهاتها . فبينما نجد زعيما مؤمنا بتطور العصر الحديث ، ويحاول أن يجاري هذا التطور بكل ما أوتي من قوة ، نرى انه

في نفس الوقت يجهل ما فطرت عليه النفسية العربيــة من خلــق وعادات من الصعب جدا نزعها والقضاء عليها بكل سهولة • وبينما نجد الزعيم الثاني لاتخفى عليه النفسية العربية ، وهو ملم بعادات العرب جيدا نجده يخفى عليه تطور الفكر العربي الجديد ، وهكذا تتعثر الوحدة العربية ، وتذهب آمال الشعوب العربية وأمانيها بين أخطاء الزعيم الاول الذي يريد أن يملي ارادته بالقوة للانظمــة التي قد يصلح تطبيقها بعالم غير العالم العربي ، ولكن الخلق العربي كما أشرت لايطيق ولا يتحمل قبول أي شي يؤخذ منه بالقوة أو يفرض عليه بالسيف • وربما ان هذا الشيء الذي يأخذه هــذا الزعيم من العربي قهرا قد يتنازل عن بعضه أو كله بمحض ارادته بأسلوب يكون الى النخوة العربية والكرم أقرب منه الى القهــر والاغتصاب •

وأعتقد جازما انه بامكان أي قائد محنك أن يقــود العرب ويستولي على مشاعرهم باسم المروءة والنجدة وما أشبه من الاشياء العاطفية ، ولكنه لايمكن لأي قائد كان ، مهما أوتي من القوة أن يسوق العربي بالقوة حتى ولو كان الامر للمصلحة العامة أو الخاصة • فالعربي يفضل أن يقاد للشقاء راضيا مختارا عــلى أن يساق الى السعادة مرغما مقهــورا • فالخلق العربي الذي قال عنــه عنترة ابن شداد :

لاتسقني كأس الحياة بذلة   بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
كأس الحياة بذلة كجهنم   وجهنم بالعز أفضل منزل

هذا الخلق لازالت جذوره باقية في نفسية العربي ، ورواسبه متأصلة في كيانه ، وليس من السهل كما سبق الاشارة الى نزع هذه العادات الراسخة من خلق العرب أحقابا طويلة .

ولذلك نجد أن رائد الامة العربية والاسلامية ، بل رائد الانسانية ، محمداً عليه السلام ، لم يطالب العرب بالزكاة فور بدئه بالرسالة ، بل جعل فرض الزكاة هي آخر ما فرض من أركان الاسلام. ومع ذلك نجد ان الأعراب بعدما توفي الرسول محمد (ص) ارتدوا عن الاسلام من أجل عدم رضاهم لدفع الزكاة ، ليس لشيء ، بل لاعتقادهم انها مفروضة عليهم ، وانهم أجبروا على دفعها بدون ارادتهم . ولهذا أرتد من ارتد عن الاسلام كله من أجل دفعه للزكاة مرغما ـ حسب اعتقاده ـ مع العلم ان مثل هذه الزكاة الجزئية قد تجد العربي يقدم عن كرم وطيب نفس لضيوفه ، ما هو أكثر منها من ابله وغنمه التي ينحر منها ما ينحر ويذبح ما يذبح بصورة اضعاف مضاعفة عما يطالب بدفعه للزكاة ، هكذا هو الخلق العربي فاحكم عليه ما شئت حسنا كان أم سيئا .

ولكن هذا هو الواقع ، فينبغي للعربي ، وخاصة ابن

الجزيرة بحكم قرب عهده بالعادات العربية ، زمن طويل كيما يهضم الاشياء التي يقبل هضمها الاوربيون • هذه الحقيقة لم يدركها مع الاسف بعض قادة العرب • واما الحقيقـة المناقضة التي يدركها القادة الاولون ولكنها خفية على القادة الآخرين كما أشرت ، فهي مشكلة التطور الذي بدأ زحفه بشدة وعنف • هذه المشكلة بقدر ما يلام الاولون لعدم ادراكهم للعقلية العربية التي تؤخذ ـ كما أسلفت ـ بالمعنويات أكثر مما تساق وترغم بالماديات ، كذلك يلام الآخرون الذين تجرهم رواسب الماضي الى الخلف ، ويهددهم تيار التقدم الى الامام من حيث يشعرون أو لايشعرون • أجل بقدر ما يقال عن جهل الأولين بنفسية العربي الذي يتنازل عن كل ما يملك في سبيل الوفاء والمروءة والنخوة والسخاء عن كرم نفس ومحض ارادة ، ولكنه يقاتل الى آخر نقطة من دمه من أجل درهم يؤخذ من ماله قهرا أو يجبر على تركه غصبا، أو صخلة تؤخذ من غنمه غزوا، بقدر ما يقال عن هؤلاء بجهلهم لهذه الناحية يقال أيضا عن الآخرين الذين يجهلون عقلية الجيل النـاشىء العربي الذي تختلف نظرته للحياة عن نظرة آبائه كل الاختلاف ، فبينما الآباء يرون ان كـل مظهر من مظاهر الحاكم من العظمة والابهة من خدم وسكن وركوب وبنين ، هو دليل على جلالة قدر الحاكم وعلو شأنه ، بينما الابناء يرون هذه الاشياء بعقل يخالف نظرة آبائهم مخالفة متضاربة وتكاد

تكون بعيدة بعد المشرق عن المغرب . بل يرون الحاكم الذي يحق لهم أن ينظروا اليه بعين ملؤها العظمة والاجـلال ، ذلك الحاكم المتقشف الزاهد بالابهة والمظاهر .

* * *

ومن المؤلم أنه عوضا عن أن يأتي مفكرون بعيدو النظر مـن أبناء هذه الامة ، يقفون موقف الوسيط بين الجانبين المتخاصمين ، لكي يسعى بالنصح للاول موضحا له أن برنامج سياسته هذه التي يحاول فرضها على عقلية الشعب العربي لايمكن تطبيقها بالقـوة والعنف اللذين يتنافيان والاباء العربي وتاريخه، وانما يمكن مجاراة التطور الزمني بأسلوب يستطيع العقل العربي أن يهضمه بالتدريج حتى يألفه بارادة منـه وبطيب نفس ، وفي الوقت ذاته ينصـح الجانب الثاني ويصارحه بأن المظاهر التي كان يجلها الاقدمـون أصبحت موضع سخرية عند التقدميـين ، والهبـات التي تعتبر حسنة وكرما بنظر الاسبقين أصبحت بعين الناشئين اما فضولا أو حقا واجبا من حقوقهم التي لايصح العبث بها .

أقول عوضا من أن يأتي من قادة الفكر مـن يقف مـوقف الوسيط بين الجانبين ، بدلا من ذلك نجد حتى هؤلاء مع الاسف يزيدون الرتق اتساعا ، والخلاف نموا واطرادا ، ويلهبون النـار اضطراما بين الجانبين بصورة تجعلهم ينقسمون قسمين : قسم منهم

يكون من أنصار هذا وخصوم ذاك ، وقسم يكون مواليا لهـذا ومهاجما للثاني ، وكل من الحاكم هذا أو ذاك لايسمـع ولا يقرأ الا ما يدافع به الموالون عن خطيئاته وما ينشر من حسناته وما يعيبون به ندّه من العيوب ، سواء أكانت هذه العيوب صحيحة أومختلقة؟

وهكذا يزيد رجال الفكر الصراع بين الجانبين شدة واحتداما، وعندما تسأل : لمصلحة من هذا الصراع ؟ يرد الجواب فـورا : لمصلحة اسرائيل ، والاستعمار الشيوعي الفكـري ، والاستعمار الغربي الرأسمالي ، ثم تسأل ثانية : على حساب من يكون هـذا الصراع ؟ فيرد الجواب حالا : انه على حساب الشعوب العربيـة، وعلى حساب هذه الامـة التي ستكون وحدهـا الضحية . ثم تسأل ثالثة : من المسؤول عن هذه الاخطاء بالدرجة الاولى ؟ فيرد الجواب : هم رجال الفكر المخلصون الذين يجب عليهم القيـام بعبء هذه الرسالة ، وهي رسالة مقدسة ثمينة ، فيجب أن يسعى المخلصون بدور الوسيط ، يجب أن يسعوا بتقريب وجهات النظر بين هذا وذاك ، لان الخلاف بين أسرة كاسرتنا العربية لن تكون نتائجه الضارة على جيلنا هذا فحسب بل وعلى الاجيال القادمـة، وعلى هؤلاء القادة أنفسهم .

استدراك

بعدما انتهيت من كتابتي لهذه الموضوعات اجتمعت بشخص من الاصدقاء ودار بيني وبينه الحديث على النهج الآتي :

س ـ ألا ترى أن التطور في الجزيرة أصبح شاملا لكل معنى من المعاني الحيوية ؟

ج ـ لاريب عندي بذلك .

س ـ ألا تعتقد أن البلاد التي لم يكن فيها مجلس أمة يمثل الرأي العام الشعبي ، لازالت بحاجة الى مزيد من التطوروالبقظة؟؟

ج ـ هذا شيء مسلم به ولا يختلف فيه اثنان ، ولكن علينا أن نعلم بأن موضوع مجلس الأمة سبق أن طالب به بعض الكتاب في عام ١٩٥٩ الموافق ١٣٧٩ ولقد لقي عند المسؤولين شيئا من القبول بصرف النظر عن كون هذا القبول سلبيا أم ايجابيا ، المقصود

انه لم يجد معارضة . وهذا بلا شك دليل واضح على ما نشير اليه من التطور ، لان مجرد الكتابة والمطالبة من أحد المواطنين بهـذا الموضوع بالنسبة للماضي يعتبر تطورا وجرأة من المواطنين . اما ان الفكرة لم تلق اجابة عملية فهـذا شيء آخر ، وعلى أي شكل فاني مؤمن بأن عموم الاشياء الحيوية تبدأ في أول الامر خيالا عند رجال الفكر ، ثم تنتقل من مرحلة الخيال الى مرحلة الكلام ، ثم تنتهي الى مرحلة العمل والتنفيـذ . وما دام انه حصـل البحث والكتابة والمطالبة من المواطنين بانشاء مجلس أمة ، فمعناه انه اذا لم تتحقق الفكرة اليوم فانها سوف تتحقق في الغد ان شاء الله .

س ــ هناك شيء آخر لم تشر اليه في كتابك هذا وهو موضوع الاحزاب ؟.. فهل معنى ذلك انه لايوجد أحزاب سياسية في البلاد، ولا سيما ووجود الاحزاب السياسية ظاهرة من أبرز مظاهر التطور والوعي ؟

ج ــ أود أن أجيبك بأنني لست ممن يؤمن بأن كل شيء يأتي الينا من الخارج يجب أن نؤمن بأنه حسن ، وأن من لم يعتنقه ويأخذ به معناه أنه جامد ، لا أنا لست من أصحاب هذه النظرية ، ولما كنت عارفاً جدا بالعقلية القبلية فانني عندما أنظر قضية الاحزاب بدقة وعمق لا أقول انها لم تأت الينا بأية معنى من معاني التقدم والرقي فحسب،

بل أقول انها عادت بنا الى الخلف ، وخاصة الاحزاب التي شاهدنا مرضها في شرقنا العربي ، فكل ما يقال عن أمثال هذه الاحزاب هو أنها تقوم على مبدأ أشبه ما يكون بمبدأ التحيز القبلي ، بمظهر تقدمي ، فالحزب من حيث الشكل والمظهر يوحي للسطحيين بأنه يقوم على أسس مدروسة ومبادىء قومية تقدمية انسانية الخ ... من العبارات المغرية . ولكنه من حيث الحقيقة والواقع هو عبارة عن كتلة متحيزة متكاتفة تحيزاً محدودا على مصالح أبناء الحزب المشتركة بصورة تكاد أن تكون أشد وأعنف من تحيز وتعصب القبيلة ، في سبيل سيادتها وغزوها وسلبها . فكما ان القبيلة لاتؤمن بمجد أية قبيلة سوى مجدها، فكذلك الحزب لايؤمن ولا يذعن ولا ينقاد لأية زعامة كانت ما لم تكن هذه الزعامة منبثقة اما من صميم الحزب أو مذعنة وسائرة لقيادة الحزب بدون قيد ولاشرط. والفرق بين التحيز القبلي والتحيز الحزبي هو ان الرابطة التي تجمع ابن القبيلة بابن قبيلته غالبا ما تكون رابطة معنوية كرابطة الدم أو البيئة أو العقيدة الروحية ، بينما نجد الرابطة التي تجمع الحزبيين بعضهم ببعض قد تكون عند الشباب الطيبي القلب رابطة عقائدية .. ولكنها عند قادة الحزب والاذكياء منهم هي رابطة مصلحة لاغير . والفرق الثاني هو أن رجال القبيلة يتعصبون في

سبيل مصالحهم المشتركة بصورة علنية لا لف فيها ولا دوران ولا مخادعة ، بينما نجد رجال الحزب يتعصبون لحزبهم كتعصب البدوي لقبيلته . الا ان الحزبي يخادع السذج بأنه لم يتعصب الا في سبيل المبادىء العامة لافي سبيل مصلحته أو مصلحة حزبه الخاصة .. وخلاصة القول هو ان النظام الحزبي في شرقنا العربي عبارة عن نظام قبلي بطابع تقدمي حديث .

س ـ معنى ذلك بأنك لاترغب أن يكون للحكومة أيةمعارضة حزبية .

ج ـ لا لست أقصد ذلك . انني أرى أن الحاكم مهما كان عادلا اذا لم يكن ثمة معارضة قوية تنبه على زلله وخطيئاته فمعنى ذلك انه سوف يخطىء من حيث لا يعلم ، أو يخطىء وهو يعلم أنه يخطىء ، ولكنه لايهتم لتصحيح خطيئته ما دام واثقا بأنه ليس مسؤولا ولا معابا على خطيئته . ولشد ما يزيد الحاكم تماديا في الخطأ عندما يثق انه ليس ثمة معارض لتصرفاته الخاطئة ، وهذه قاعدة مألوفة في طبائع البشر ، ليست مقصورة على حكومة أو حاكم دون الآخر . ولذلك تجدني اؤمن بأن المعارضة لأية حكومة كانت ضرورة لابد منها ، ولكني لا أومن بالمعارضة القائمة على أساس حزبي ، لاني كما أمقت المعارضة على أساس قبلي أو اقليمي،

كذلك أكره المعارضة القائمة على أساس حزبي ، لانها غالبا ما تكون معارضة في سبيل الزعامة والمصالح الخاصة لا في سبيل المبادىء العامة .

س ـ مادام انك ترى أن قيام الاحزاب على الاسس التي أشرت اليها لا يدل على معنى من معاني التطور فهل تعرف شيئا آخر من المعاني التي توحي بأنها من مظاهر التطور والحضارة بينما هي في الواقع خلاف ما تنعت به .

ج ـ نعم أعرف شيئا هاما قد يعبر عن مظاهر التطور بينما هو في الحقيقة مظهر من مظاهر فناء البشر وابادتهم .

س ـ ماذا تعني بذلك ؟

ج ـ أقصد تطور العقلية البشرية في سبيل محاولة افنائها بعضها بعضا .. من أجل السيطرة وفرض النفوذ، لقد كان الانسان البدائي رغم سطحيته أقرب انسانية من انسان عصر النور والتطور كما يقال.. فمثلا كان الانسان فيما سبق اذا حارب أخاه الانسان كانت الحرب تدور بين فريق وفريق بالحجارة فقط، فيجرح من يجرح من المحاربين ، ويشج رأس من يشج رأسه ، وقليلا جدا ما تقع خسائر قتلى بين المتحاربين . أما الآن فقد انتزعت الرحمة الانسانية من بني الانسان ، وتطور العقل البشري،

لا باتقان الاشياء التي تعود على البشرية برفاهية العيش والرغد والحياة الهنيئة السعيدة ، بل تطور العقل في سبيل صنع واختراع القوة التي تبيد ، لا المحاربين فحسب ، بل تبيد النساء المخدرات والاطفال الرضع والشيوخ العاجزين • مع العلم بأنه لو صرف هؤلاء المتصارعون على ابادة البشرية ما ينفقونه في سبيل سباق التسلح ، لما يعود لصالح شعوبهم من مشروعات صناعية وزراعية ، لو وفقوا لذلك ، لعاش جميع البشر بهناءة وسعادة ، ولما احتاج الامر الى هذا التطاحن الشنيع • وما دام قادة البشرية بهذا العصر يؤمن كل منهم بأنه لو وقعت حرب ثالثة فان معنى ذلك فناء البشرية ، ولكنهم برغم ايمانهم هذا تجد سباق التسلح بين الجانبين قائما على قدم وساق •• فهل بعد ذلك يصح أن نؤمن بأن ما جاء بهذا العصر الحديث كله حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وانه يجب أن نساق وراء التطور هذا بدون قيد ولا شرط؟• أو ان الاجمل بنا أن نأخذ ما كان حسنا منه ونقلع عن الشيء السيء منه •

وهذا هو المبدأ الذي أومن به •

س ــ ما رأيك في التأميم ؟

ج ــ أنا أومن بالحرية ، وأكفر بكل شيء يسلب قهرا بدون

حرية المواطن ورضاه لانه لم يكن للتضحية الوطنية اي معنى من المعاني عندما يكون الشيء مأخوذ اجباريا من صاحبه كما اني في نفس الوقت لا أومن بأن ينعم فرد بعشرات الملايين أو مئاتها على حساب تعاسة آلاف المواطنين بل أفضل أن يكون ثمة محاسبة على مبدأ من أين لك هذا ؟ كما فعل عمر بن الخطاب في ولاته . فان أثبت المسؤول بالادلة القاطعة والبراهين المعقولة بأن ما في حوزته من المال انما هو من عرق جبينه وكسب يمينه فيترك وشأنه ، وان لم يثبت فمعناه انه اختلاس من مالية الوطن ، فمن أخذ من مالية الأمة بدون حق حري به أن يعيده اليها بحق مشروع .



النهاية

سبق ان أشرت بأن أكثر المواد المثبتة في هذا السفر ، أو كلها، انما كنت أستمدها من ذاكرتي ، ما عدا الاشياء الآتية : البيـان الخاص في وزارة المعارف الذي نوهت بأنني استحصلت عليـه من الملحق الثقافي السعودي في بيروت • وكذلك ما له عـلاقة بالصحة ، فقد استحصلت عليه من الملحـق الطبي السعودي في بيروت أيضا ، واما عدد الطرق المعبدة والموانىء والمطارات فقـد استوفيتها من وزير المواصلات سابقا صديقنا الشيخ عبد الله السعد حيث اجتمعت به في بيروت •

ومما لاشك فيه بأنني لو كنت في المملكة أثناء قيامي بتأليف هذا السفر ، أو لو فكرت في تأليفـه في فترة تخولني أن أذهب للمملكة ثم أعود قبل أن تنتهي مأذونيتي المحدودة ، لو فكرت في ذلك ، لكان بالامكان أن لا أترك شاردة ولا واردة مـن الاشياء

التي تستحق الاشارة الا أحصيتها ، وخاصة بعد فترة التطور ، اما ما كان في الفترة الاولى والثانية ، فانني أعتقد انه لم يفت علي شيء من الامور الهامة الا أشرت اليه ، وعلى أية حال فانني أرجو من القارىء الكريم أن يتجاوز عما قد يصادفه من السهو والنسيان ، وهما من طبيعة الانسان ، وان يذكر بأن فكرة الكتابة في الموضوعات التي عالجتها ، وان كانت تداعب خيالي من الاساس ، الا انني لم أكن أتصور بأن أخرج هذا الخيال الى حيز الوجود الا بتأثير مناسبة طارئة كان الباعث اليها كتاب أهدانيه الزميل الاستاذ زياد محمد الشواف . ولما كان الكتاب بعنوان « التطور الفكري للعالم العربي في القرن العشرين » فقد كان هذا العنوان من أهم الحوافز التي دفعتني للامام لكي أخرج هذا السفر ، أي انني وجدت في العنوان المذكور ما ينسجم أبلغ الانسجام مع ذلك الخيال الذي كنت أهيم بفلكه كفكرة ، وهكذا وجدتني أنساق عفواً الى ابتدار العمل بعدما أخذ مني هذا العنوان مأخذه ، فكان هذا الكتاب .

هذا وأسأله تعالى أن يعين على أن أكتب في هذا الموضوع كتابة أشمل وأفسح مما أثبت في سفري هذا عندما تسنح لي أدنى فرصة مناسبة .

بيد أنني لا أجد بداً من أن أختم بالاشارة الى ناحية هامة ،

تلك التي تشغل تفكير كل مواطن مخلص من أبناء الجزيرة العربية، بل كل مخلص من الناطقين بالضاد جميعا ، وأعني ما نشعر به عن بكرة أبينا من الضرورة الماسة لمسايرة ركب التطور الحديث بكل ما نملك من القوة ، على أن لا نأخذ الا بما كان حسنا نافعا . هذه الناحية أجد أن الكثير من التقدميين ، متشائمون فيها تشاؤما يبلغ حد الاسراف. وانني لأشاركهم تشاؤمهم هذا في كثير من الاحيان، ولكن بدافع العاطفة لا أكثر ، لانني عندما أحكم المنطق والعقل أجد ان هذا التشاؤم وان كان فيه شيء من الحقيقة ، ولكنه لم يكن الحقيقة كلها ، وانما الحقيقة التي ينبغي الركون اليها هي اننا اذا أردنا ان ننظر الى الجزيرة ، بنفس العين والعقل الذي ننظر فيه الى البلاد التي سبقتنا بالرقي والحضارة ، كأوربة مثلا أو الولايات المتحدة الامريكية ، بل وحتى البلاد العربية المجاورة ، ما عدا اليمن، اذا أردنا ذلك فاننا نكون قد أخطأنا في تقديرنا بل وظلمنا أنفسنا في تفكيرنا ، وذلك اننا اذا سلمنا جدلا بأن أبرز مظاهر التقدم للأمم هو العلم ، وقد سبق أن أكدت بأنه لا يوجد في شرقي الجزيرة وشمالها منذ عشر سنوات ونيف من يستطيع أن يكتب جملة واحدة في احدى الصحف ، كما انه لا يوجد أية مدرسة علمية على الطراز الحديث ولا يوجد في تلك النواحي من أقصاها الى أدناها منزل مبني بالحجر أو الاسمنت ، بما في ذلك مسكن الملك الراحل

عبد العزيز رحمه الله الذي عاش وتوفاه الله وهو في بيت من الطين.
كما انه لايوجد في جميع هذه البلاد أية اضاءة كهربائية. ولا يوجد
ولا يوجد الخ.. أجل فنحن عندما نقارن بين ساكني الجزيرة ،
وبين ساكني أوربة ، من الناحية التاريخية ، فنجد مثلا ما يسميه
الاوربيون العصور الوسطى ، أو عهد الظلمات من حيث التخلف
بالحضارة ، نجد أن ذلك العهد يبتدىء عام ٣٩٥ وقد ظلت أوربة
تعيش في دياجير الظلمات خلال تلك المدة . ولم يبد عهد اليقظة
والعلم الا في مطلع القرن الثامن عشر ، ومعنى ذلك ان المدة بين
العصور الوسطى والتطور الفكري في اوربة هي ألف وثلاثمائة
عام . ومن هنا يبدو الفرق الكبير بين المدة التي تعتبر عندنا في
الجزيرة أشبه ما تكون بالقرون الوسطى عينا بعين ، وخاصة في
بداية الفترة الاولى في أول القرن العشرين الذي أكدت في الصفحة
الثامنة من هذا الكتاب بأن تلك الفترة صورة طبق الاصل للحياة
الجاهلية من حيث العادات والبيئة والحياة الاجتماعية ، اللهم الا
من حيث الحياة الديموقراطية ، والحرية الكاملة التي يتمتع بها
العربي سواء قبل الاسلام ، أو بعده ، فاذا كان فرق العهد في اوربة
بين القرون الوسطى وفترة التطور ١٧٠٠ عام ، أفلا يصح أن نكون
متفائلين أكثر من أن نكون متشائمين عندما نقارن بين فترة التطور
لدينا فنجدها لم تزد على اثني عشر عاما ان لم يكن أقل ، بينما هي

تعد مئات السنين بين عصر الانحطاط وبين فترة التطور في أوربة؟ هذه الناحية يجب أن ننظر اليها بعين الاعتبار ، وأما الناحية الثانية فهي البون الشاسع البعيد عندما نقارن بين المناخ والجو والتربة في الجزيرة ، وبين المناخ والجو والتربة في أوربة ، بل وحتى في البلاد العربية المجاورة ، فالجزيرة كما وصفها بعض الكتاب هي « كرأس الغزال » أي عظما بلا لحم ، فلا أنهار ولا غابات ولا سدود ، ولا أي شيء يذكر من مقومات الحضارة ، اللهم الا « البترول » الذي تفجر منذ عهد قريب ، ومما لاشك فيه أن للجو والمناخ تأثيرا على النمو الفكري ، الامر الذي جعل من تلك البلاد ، أي البلاد الاوربية من رجال الفكر العدد الجم بحكم تأثير الجو والتربة والمناخ ، ومعلوم أن رجال الفكر هم قادة الاصلاح ، ومن هذه الناحية نجد أن البلاد لا زالت بحاجة الى المزيد من رجال الفكر المخلصين ، لان التطور الاصلاحي لا يأتي دائما الا عن طريقهم ، ولما كانت البلاد كما أشرت خلوا من الرصيد الكافي من أصحاب النضج الفكري ، وهذا لايتيسر الا بعد فترة ليست مرتجلة ، وما دام ان الموجود من هذه الفئة على ما فيهم من البركة والاخلاص ، ويندر أن نجد مفكرا أو كاتبا ،مشغولون في كسب العيش ، يستطيع أن يوحد جهوده ويمضي قدما في تأدية رسالته الفكرية على أكمل الوجوه ، معرضا نفسه لكل ما يلاقيه في سبيل

رسالته هذه من عقاب أقله الطرد من وظيفته ، أقـول ما دام أنه لايوجد الكاتب أو المفكر الذي لو قام بمهمة كهذه وأبعد عن عمله يستطيع أن يكون لديه من أسباب الكسب ما يغنيه عـن وظيفته، فانه لاينبغي والحالة هذه أن نكون متشائمين متطيرين الى درجة الاسراف ، بل الواقع هو اننا اذا تجردنا عن العاطفة وحكمنا المنطق والعقل فاننا نجد البلاد ، وان كانت بالنسبة لمن ينظر لتطور العصر الحديث لاتحفها نظرة التفاؤل ، ولكن بالنسبة لمن ينظر لتاريخ نشوء الامم ومقدار المدة التي استغرقتها في سبيلهـا الى التطور ، فانه يجد ولا شك أن الجزيرة قد لايأتي عليها مدة قريبة حتى يواتيها من التطور الفكري ما لم تحلم بمثله .

وكل ما أرجوه أن توفق البلاد الى شباب يحمل حنكة الشيوخ وتجاربهم ، والى شيوخ يحملون همة الشباب ونشاطهم . فتسير عجلة الوطن بهما الى الغاية المرجوة وتستعيد الجزيرة مجـدها الاول حيث كانت منارة للاشعاع الروحي والفكري . والله الموفق وهو على كل شيء قدير .



تعقيب

لقد فاتني أن أذكر بعض الاشياء كتعليم البنات ، الذي فتح على مصراعيه ، في هذا العام ١٣٨١-١٩٦٢ ، ومدارس البنات لم تكن تابعة للمعارف بل تابعة للمفتي الكبير الشيخ محمد ابن ابراهيم ، كما فاتني الاشارة الى وفرة الفنادق خاصة في مدينة الرياض تلك الفنادق التي تعتبر من أروع الفنادق في الشرق العربي علما بأنه منذ سبع سنوات لم يكن في الرياض أي فندق ، كما انه لايوجد كهرباء ، الا الكهرباء الخاصة بالحكومة ... أما الآن فقد وجد شركة كهرباء شعبية في الرياض ، وفي القصيم، وعما قريب سوف لايبقى بيت في المملكة الا دخلته الكهرباء .

وقد كان الماء يدخل المساكن بواسطة السقاية ، أي يحمله رجل أو امرأة فيدخله المنزل بواسطة القربة أو بواسطة أخرى من

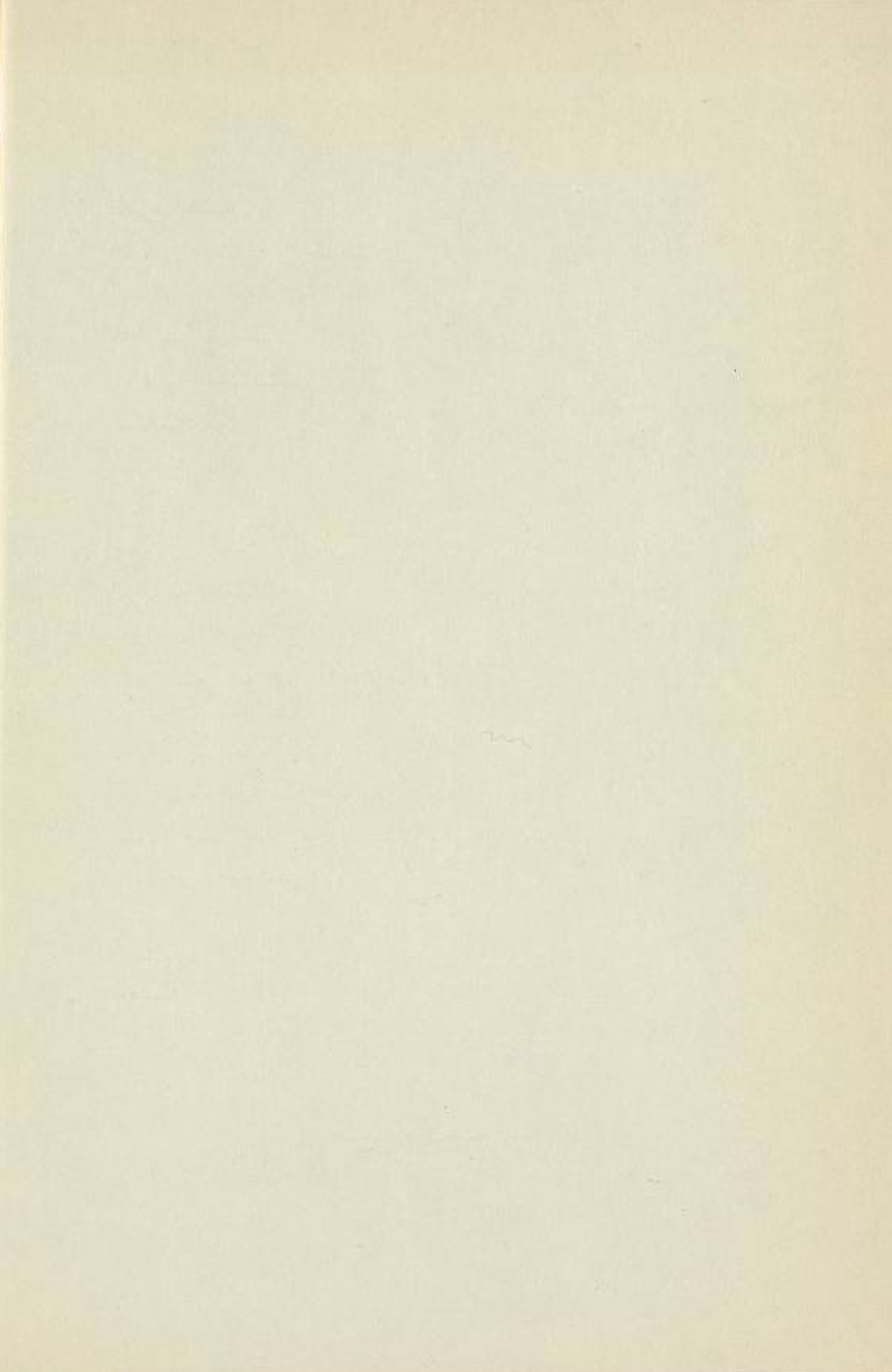
الآنية ، وكان ذلك في عموم الجزيرة بصورة عامة ، أما الآن فقد أصبح الماء يدخل للمنازل بواسطة الانابيب •

هذا وانه ليطيب لي أن أشير الى ما جاء في صفحة ٧٨ من هذا الكتاب بشأن دية المقتول خطأ ، حيث ذكرت بأنها ثلاثون ألف ريال ، وقد أكد لي بعض الاخوان بأنه شاهد شخصا قتله سائق سيارة خطأ هذه الايام في البلاد فدفعت الدية عشرين ألف ريال •



الفهرس





آثـــار المؤلف :

1 من شيم العرب « الجزء الاول » .

2 هكذا يكون الاصلاح .

3 بين الاصلاح والافساد .

4 هكذا نصلح أوضاعنا الاجتماعية .

5 قالها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب .

تحت الطبع :

1 من شيم العرب « الجزء الثاني » .

2 عميد الأدب الشعبي وملهب الشعور القومي محمد العوني .
مع مختارات من شعره .

3 العرب أمـــة واحـــدة .



كلمة الناشر

اذا كنت حريصاً على معرفة

* ما كان عليه جيل الجزيرة بالأمس القريب من عادات وتقاليد.
* ومدى التطور الخطير الذي يتمتع به هذا الجيل اليوم وقد فاجأته الاحداث بصورة خاطفة مذهلة ، فتحول من الجمل الى النفاثة .
* وانخفاض درجة الوعي القومي بالأمس ، ومقدار سموه وارتفاعه لايامنا هذه .
* وما يتمسك به الأقدمون ، وما يطالب به التقدميون .
* والحل الوسط بين الأقدمين والتقدميين .
* وكنه السر الحقيقي الذي مكّن للملك عبد العزيز آل السعود سيادة الجزيرة وتوحيد شملها وكلمتها .
* وتاريخ الجزيرة في الماضي والحاضر ، وما ينبغي أن يستشرفه في المستقبل .

اذا كنت حريصاً على هذه المعاني الحية

وهي مما لم يسبق لكاتب أن أشار اليها بوضوح

فما عليك الا أن تطالع ما انضمت عليه دفتا هذا السفر الموجز بلفظه ، الشامل بمعانيه ، الغني بما فيه